تفسير سورة البلد من موسوعة التفسير المأثور والتفسير المحرر

التفسير المأثور

□

مقدمة السورة

٨٣٢٢٦- عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد-: مكّيّة(١). (١٥/٤٣٢)

٨٣٢٢٧- عبد الله بن عباس -من طريق عطاء الخُراسانيّ-: مكّيّة، وذكرها بمُسمّى: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، وأنها نزلت بعد (ق والقرآن المجيد)(٢). (ز)

٨٣٢٢٨- عن عبد الله بن الزُّبير: نزلت سورة (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ) بمكة(٣). (١٥/٤٣٢)

٨٣٢٢٩- عن عكرمة مولى ابن عباس= (ز)

٨٣٢٣٠- والحسن البصري -من طريق يزيد النحوي-: مكّيّة، وسمّياها: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)(٤). (ز)

٨٣٢٣١- عن قتادة بن دعامة -من طرق-: مكّيّة(٥). (ز)

٨٣٢٣٢- عن محمد بن مسلم الزُّهريّ: مكّيّة، وذكرها بمُسمّى: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، وأنها نزلت بعد (اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ)(٦). (ز)

٨٣٢٣٣- عن علي بن أبي طلحة: مكّيّة(٧). (ز)

٨٣٢٣٤- قال مقاتل بن سليمان: سورة البلد مكّيّة، عددها عشرون آية كوفي(٨)٧١٧٤. (ز)

٧١٧٤ نقل ابنُ عطية (٨/٦١٨) عن قوم: «أنّ سورة البلد مدنية».

(لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ
٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ
٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ
نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠)

(لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١)

<u>تفسير</u>

٨٣٢٣٥- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية- في قوله تعالى: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(٩). (١٥/٤٣٢)

٨٣٢٣٦- عن سعيد بن جُبَير، (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(١٠). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٣٧- عن مجاهد بن جبر، في قوله: (لا أُقْسِمُ)، قال: (لا) ردًّا عليهم، (أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)(١١)٧١٧٥. (١٥/٤٣٤)

٧١٧٥ نقل ابنُ عطية (٨/٦١٨) في معنى: (لا أقسم) قولين آخرين: الأول عن الزَّجّاج وغيره: أن «(لا) صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله تعالى: (أُقْسِمُ)». والثاني عن بعض المتأولين: أنّ «(لا)» نفيٌ للقَسم بالبلد، أخبر الله تعالى أنه لا يُقسِم به".

٨٣٢٣٨- عن مجاهد بن جبر -من طريق منصور- (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ): يعني: مكة(١٢). (١٥/٤٣٤)

٨٣٢٣٩- عن منصور بن المعتمر، قال: سأل رجل مجاهدًا عن هذه الآية: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ). قال: لا أدري. ثم فسّرها لي، فقال: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ) الحرام(١٣). (١٥/٤٣٤)

٨٣٢٤٠- عن عطاء -من طريق عبد الملك- في قوله: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ): يعني: مكة(١٤). (ز)

٨٣٢٤١- عن أبي صالح [باذام]، (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(١٥). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٤٢- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(١٦). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٤٣- قال مقاتل بن سليمان: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، يعني: مكة(١٧). (ز)

٨٣٢٤٤- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- قال في قول الله: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(١٨). (ز)

*****

وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢)

نزول الآية

٨٣٢٤٥- عن أبي بَرزة الأسلمي، قال: فِيّ نزلت هذه الآية: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)؛ خرجتُ، فوجدت عبد الله بن خَطَل مُتعلّقًا بأستار الكعبة، فضربتُ عُنُقه بين الرُّكن والمقام(١). (١٥/٤٣٣)

٨٣٢٤٦- عن سعيد بن جُبَير، قال: لَمّا فتح النبيُّ ﷺ الكعبةَ أخذ أبو بَرزة الأسلمي هو وسعيدُ بن حُريث عبدَ الله بن خَطَل -وهو الذي كانت قريش تُسمّيه: ذا القَلْبَين؛ فأنزل الله: (ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)-، فقدَّمه أبو بَرزة، فضَرب عُنُقه وهو مُتعلّق بأستار الكعبة؛ فأنزل الله فيه: (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، وإنما كان ذلك لأنه قال لقريش: أنا أعلم لكم علم محمد. فأتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أحبّ أن تَسْتَكتبني. قال: «فاكتب». فكان إذا أملى عليه من القرآن: (وكانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء:١٧] كتب: وكان الله حكيمًا عليمًا. وإذا أملى عليه: (وكانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء:٩٦] كتب: وكان الله رحيمًا غفورًا. ثم يقول: يا رسول الله، أقرأ عليك ما كتبتُ؟ فيقول: «نعم». فإذا قرأ عليه: وكان الله حكيمًا عليمًا. أو: رحيمًا غفورًا. قال له النبيُّ ﷺ: «ما هكذا أمليتُ عليك، وإنّ الله لكذلك؛ إنه لغفور رحيم، وإنه لرحيم غفور». فرجع إلى قريش فقال: ليس آمره بشيء كنتُ آخذ به فيتصرف. فلم يُؤمِّنه، فكان أحد الأربعة الذين لم يُؤمِّنهم النبيُّ ﷺ(٢). (١٥/٤٣٣)

تفسير الآية

٨٣٢٤٧- عن عبد الله بن عباس، في قوله: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أنتَ -يا محمد- يحلّ لك أن تقاتل به، وأمّا غيرك فلا(٣)٧١٧٦. (١٥/٤٣٢)

٧١٧٦ وجَّه ابنُ كثير (١٤/٣٥٣) قول ابن عباس، وأبي صالح، والضَّحّاك، والحسن، وعطية، وقتادة، وابن زيد بقوله: «وهذا المعنى الذي قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته: «إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم

خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شجره، ولا يُختلى خلاه، وإنما أُحِلّتْ لي ساعة من نهار، وقد عادتْ حُرمتها اليوم كحُرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب». وفي لفظ: «فإنْ أحدٌ ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا: إنّ الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم»».

٨٣٢٤٨- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية- في قوله تعالى: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ): يعني بذلك: النبيَّ ﷺ؛ أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل مَن شاء، ويستحيي مَن شاء، فقَتل يومئذ ابن خَطَل صَبْرًا وهو آخِذٌ بأستار الكعبة، فلم يحلّ لأحد مِن الناس بعد رسول الله ﷺ أن يقتل فيها حرامًا حرّمه الله، فأحلّ الله له ما صنع بأهل مكة، ألم تسمع أنّ الله قال في تحريم الحَرم: (ولِلَّهِ عَلى النّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلًا) [آل عمران:٩٧]؟ يعني بالناس: أهل القِبلة(٤). (١٥/٤٣٢)

٨٣٢٤٩- عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد- (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أحلّ له أن يصنع فيه ما شاء(٥). (١٥/٤٣٦)

٨٣٢٥٠- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: مكة(٦). (١٥/٤٣٧)

٨٣٢٥١- عن مجاهد بن جبر -من طريق منصور-: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، يعني: رسول الله ﷺ، يقول: أنتَ في حِلٍّ مما صنعتَ فيه(٧). (١٥/٤٣٤)

٨٣٢٥٢- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، يقول: لا تُؤاخذ بما عملتَ فيه، وليس عليك فيه ما على الناس(٨). (١٥/٤٣٤)

٨٣٢٥٣- عن منصور بن المعتمر، قال: سأل رجلٌ مجاهدًا عن هذه الآية: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ). قال: لا أدري. ثم فسّرها لي، فقال: الحرام، أحلّ الله له ساعة من النهار؛ قيل له: ما صنعتَ فيه من شيء فأنت في حِلٍّ(٩). (١٥/٤٣٤-٥٣٥)

٨٣٢٥٤- عن أبي صالح [باذام]، (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أُحلّتْ له ساعة من نهار(١٠). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٥٥- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، مثله(١١). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٥٦- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد-: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، يعني: محمدًا صلى الله عليه وسلم، يقول: أنتَ حِلٌّ بالحرم؛ فاقتل إن شئتَ، أو دَعْ(١٢). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٥٧- عن الحسن البصري، (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أحلّها الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ساعةً مِن نهار يوم الفتح(١٣). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٥٨- عن عطية بن سعد العَوفيّ، (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أُحلّتْ مكةُ للنبي صلى الله عليه وسلم ساعةً مِن نهار، ثم أُطبقتْ إلى يوم القيامة(١٤). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٥٩- عن عطاء -من طريق عبد الملك- (لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: إنّ الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لبشر إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ساعةً مِن نهار، لا يُختلى خلاها - (الخلا -مقصور-: النبات الرطب الرقيق ما دام رطبًا،

واختلاؤه: قطعه، وأخلت الأرض: كثر خلاها، فإذا يبس فهو حشيش. النهاية (خلا) - ، ولا يُعضَد عِضاهها - (العضاة: شجر أم غيلان، وكلّ شجر عظيم له شوك. النهاية (عضه) - ، ولا يُنفَّر صيدها، ولا تَحلّ لُقَطتها إلا لمعرّف(١٧). (١٥/٤٣٦)

٨٣٢٦٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: أنتَ به غير حَرِجٍ، ولا آثم(١٨). (١٥/٤٣٥)

٨٣٢٦١- عن شرحبيل بن سعد -من طريق أبي مَعشر- (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: يُحرِّمون أن يقتلوا بها الصيد، ويعضدوا بها شجرة، ويستحلُّون إخراجك وقتلك!(١٩). (١٥/٤٣٦)

٨٣٢٦٢- قال مقاتل بن سليمان: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، يعني: لم أُحلّها لأحد مِن قبلك ولا مِن بعدك، وإنما أحللتها لك ساعة مِن النهار، وذلك أنّ الله لم يفتح مكة على أحد غيره، ولم يحلّ بها القتلُ لأحد، غير ما قتل النبيُّ صلى الله عليه وسلم مقيس بن [صبابة] الكناني وغيره حين فتح مكة(٢٠). (ز)

٨٣٢٦٣- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ)، قال: لم يكن بها أحدٌ حِلًّا غير النبيِّ صلى الله عليه وسلم، كلّ مَن كان بها حرامٌ لم يحلّ لهم أن يُقاتلوا فيها، ولا يستحلُّوا فيها حُرمة، فأحلّه الله لرسوله، فقاتل المشركين فيه(٢١)٧١٧٧. (١٥/٤٣٦)

أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٠٥، وزاده: فأحله الله لرسوله، فقاتل المشركين فيه.

٧١٧٧ اختُلف في معنى: (وأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البَلَدِ) على قولين:
الأول: أنت حلال بهذا البلد يحلّ لك فيه قتْل مَن شئتَ.

الثاني: أنت مُحِلٌّ بهذا البلد غير محرم في دخوله.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/٦١٨) القول الأول بقوله: «وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يتركب قول مَن قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح. ويتركب على هذا التأويل قول مَن قال: (لا) نافية، أي: إنّ هذا البلد لا يُقسِم الله به، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حُرمته. ويتَّجه أيضًا أن تكون (لا) غير نافية».

ووجَّه ابنُ القيم (٣/٣٠٣) القول الثاني بأنه «حلال ساكن البلد، بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع، ولأنّ أمْنه إنما تظهر به النعمة عند الحِلّ من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان، والمقصود هو ذِكْر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمْنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن».

ونقل ابنُ عطية عن بعض المتأولين أنّ المعنى: «وأنت ساكنٌ بهذا البلد». ثم وجَّهه بقوله: «وعلى هذا يجيء قول مَن قال: هي مكّيّة. والمعنى على إيجاب القسم بيِّن، وعلى نفيه أيضًا يتَّجه على معنى: لا أُقسِم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم».

ووجَّهه ابنُ القيم (٣/٣٠٤) بأنه «متضمن لهذا التعظيم، مع تضمّنه أمرًا آخر، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدًى للناس، ونبيّه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نِعمه وإحسانه إلى خَلْقه، كما هو مِن أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيّه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية». ثم نقل عن شرحبيل بن سعد -حكاية عن الثعلبي-

أنّ المعنى: «قد جعلوك حلالًا مُستَحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا».

*****

وَوَالِد وَمَا وَلَدَ (٣)

تفسير

٨٣٢٦٤- عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد-: (ووالِدٍ وما ولَدَ) يعني بالوالد: آدم، (وما ولَدَ) ولده(١). (١٥/٤٣٦) أخرجه الحاكم ٢/٥٢٣

٨٣٢٦٥- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: هو الوالد، وولده(٢). (ز)

٨٣٢٦٦- عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- (ووالِدٍ وما ولَدَ) قال: الوالد الذي يلد، (وما ولَدَ): العاقِر الذي لا يلد من الرجال والنساء(٣). (١٥/٤٣٧)

٨٣٢٦٧- عن سعيد بن جُبَير، (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: آدم، وما ولد(٤). (١٥/٤٣٨)

٨٣٢٦٨- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (ووالِدٍ وما ولَدَ) قال: الوالد: آدم، (وما ولَدَ) ولده(٥). (١٥/٤٣٧)

تفسير مجاهد ص٥٠٥، وأخرجه الفريابي -كما في تغليق التعليق ٤/٣٦٨-، وابن جرير ٢٤/٤٠٦-٤٠٧. وعلقه البخاري في صحيحه ٤/١٨٨٨ مقتصرًا على أوله. وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

٨٣٢٦٩- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: الوالد: آدم، وما ولد: ولده(٦). (ز)

٨٣٢٧٠- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق النضر بن عربي- (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: العاقر، والتي تلد(٧). (ز)

٨٣٢٧١- عن أبي صالح [باذام] -من طريق إسماعيل ابن أبي خالد- في قوله: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: آدم، وما ولد(٨). (ز)

٨٣٢٧٢- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: آدم، وما ولد(٩). (١٥/٤٣٧)

٨٣٢٧٣- عن أبي عمران الجوني -من طريق جعفر بن سليمان- (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: إبراهيم، وما ولد(١٠). (١٥/٤٣٧)

٨٣٢٧٤- قال مقاتل بن سليمان: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، يعني: آدم، وذُرّيته إلى أن تقوم الساعة، فأقسم الله بمكة، وبآدم، وذُرّيته(١١). (ز)

٨٣٢٧٥- عن سفيان [الثوري] -من طريق مهران- في قوله: (ووالِدٍ وما ولَدَ)، قال: آدم، وما ولد(١٢)٧١٧٨. (ز)

٧١٧٨ اختُلف في معنى: (ووالِدٍ وما ولَدَ) على أقوال: الأول: عُنِيَ بالوالد: كلّ والد، وما ولد: كلّ عاقر لم يلد. الثاني: عني بذلك: آدم، وولده. الثالث: إبراهيم، وما ولد.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/٤٠٨) العموم، فقال: «إنّ الله أقسم بكلّ والدٍ وولده». وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله عمَّ كلَّ والدٍ وما ولد، وغير جائزٍ أن يُخَصَّ ذلك إلا بحجّةٍ يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر

بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمَّه».

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/٣٥٤) القول الثاني، وهو قول مجاهد وما في معناه مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأُمّ القُرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده». ثم ذكر أنّ اختيار ابن جرير محتمل أيضًا.

ونقل ابنُ عطية (٨/٦١٩) عن بعض رواة التفسير أنّ معنى الآية: «نوح، وجميع ولده». ونقل عن ابن عباس ما معناه: «أنّ الوالد والولد هنا على العموم؛ فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان».

****

لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤)

نزول الآية

٨٣٢٧٦- قال مقاتل بن سليمان: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ) نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف القرشي؛ وذلك أنه أصاب ذنبًا وهو بالمدينة، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما كفّارته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب فأعتق رقبة، أو أطعِم ستين مسكينًا». قال: ليس غير هذا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو الذي أخبرتُك». فرجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مهموم مغموم حتى أتى أصحابَه، فقال: واللهِ، ما أعلم إلا أني لَئِن دخلتُ في دين محمد إنّ مالي لَفي نقصان مِن الكفارات

والنفقة في سبيل الله، ما يظن محمد إلا أنّا وجدنا هذا المال في الطريق! لقد أنفقتُ مالًا لبدًا. يعني: مالًا كثيرًا؛ فأنزل الله ﷻ: {لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ}(١)٧١٧٩. (ز)

٧١٧٩ نقل ابنُ عطية (٨/٦٢٠) قولين آخرين في نزول الآية، فقال: «وروي أن سبب هذه الآية وما بعدها هو أبو الأشَدَّين، رجل من قريش شديد القوة، اسمه: أسيد بن كلدة الجمحي، كان يحسب أن أحدًا لا يقدر عليه. ويقال: بل نزلتْ في عمرو بن عبد ودّ. ذكره النَّقّاش». وعلَّق عليه بقوله: «وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي بن أبي طالب ﵁ خلف الخندق».

تفسير الآية

٨٣٢٧٧- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: {لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في انتصاب. ويُقال: في شِدّة(٢). (١٥/٤٣٧) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤١٠، والطبراني (١٢٤١٢) من طريق سعيد بن جُبَير بلفظ: في اعتدال وانتصاب.

٨٣٢٧٨- عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- {لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في نصب(٣). (١٥/٤٣٨)

٨٣٢٧٩- عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن جُبَير- {لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في شِدّة(٤). (١٥/٤٣٨)

٨٣٢٨٠- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء- {لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ}، قال: في شدة معيشته، وحمله وحياته، ونبات أسنانه(٥). (١٥/٤٣٨)

أخرجه ابن جرير ٢٤/٤١٠، والحاكم ٢/٥٢٣. وعزاه السيوطي إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بلفظ: في شدة خَلْق؛ في ولادته، ونبْت أسنانه، وسَرره، ومعيشته، وختانه.

٨٣٢٨١- عن عبد الله بن عباس -من طريق مِقْسَم- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: خَلَق اللهُ كلَّ شيء يمشى على أربعة، إلا الإنسان فإنه خُلِق مُنتَصِبًا(٦). (١٥/٤٣٩)

٨٣٢٨٢- عن عبد الله بن عباس، (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: مُنتَصِبًا في بطن أُمّه(٧). (١٥/٤٣٩)

٨٣٢٨٣- عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- في قوله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: مُنتصبًا في بطن أُمّه؛ إنه قد وُكِّل به مَلَكٌ إذا نامت الأُمّ أو اضطجعتْ رفع رأسه، لولا ذلك لغرق في الدم(٨). (١٥/٤٣٩)

٨٣٢٨٤- عن عبد الله بن عباس، أنّ نافع بن الأزرق سأله عن قوله : (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ). قال: في اعتدال واستقامة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ قول لَبِيد بن ربيعة:

يا عينُ هلا بكيتِ أرْبَدَ إذ ...... قمنا وقام الخصومُ في كَبد؟(٩). (١٥/٤٣٩)

٨٣٢٨٥- عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد -من طريق إسماعيل بن أبي خالد- في قوله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: معتدلًا بالقامة(١٠). (ز)

٨٣٢٨٦- عن سعيد بن جُبَير -من طريق عمرو بن ثابت، عن أبيه- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ): في انتصاب(١١). (١٥/٤٣٨)

٨٣٢٨٧- عن إبراهيم النَّخْعي -من طريق منصور- أحسبه عن عبد الله، (فِي كَبَدٍ)، قال: مُنتصبًا(١٢). (١٥/٤٣٩)

٨٣٢٨٨- عن سعيد بن أبي الحسن -من طريق علي بن رفاعة- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: يُكابد مضايق الدنيا، وشدائد الآخرة(١٣). (ز)

٨٣٢٨٩- قال حُميد: أرسل عمر بن عبد العزيز إلى مجاهد، قال: فخرجتُ معه، فلما كان يوم الجمعة خرج عمر، فصعد المنبر، فقال: ألا إنّ الله خَلَقكم مِن أكباد، فقال: (لقد خلقنا الإنسان في كبد) ...(١٤). (ز)

٨٣٢٩٠- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: في شدة(١٥). (١٥/٤٣٧)

٨٣٢٩١- عن مجاهد بن جبر -من طريق سفيان- (الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: شدة خروج أسنانه(١٦). (ز)

٨٣٢٩٢- عن مجاهد بن جبر -من طريق مغيرة- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: صَعَد(١٧). (ز)

٨٣٢٩٣- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: (فِي كَبَدٍ): خُلِق مُنتصبًا على رجلين، لم تُخلق دابة على خَلْقه(١٨). (ز)

٨٣٢٩٤- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق النضر- (فِي كَبَدٍ)، قال: شدة وطول(١٩). (١٥/٤٤٠)

٨٣٢٩٥- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق عمارة- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: في انتصاب، يعني: القامة(٢٠). (ز)

٨٣٢٩٦- عن الحسن البصري -من طريق علي بن رفاعة- أنه قرأ هذه الآية: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ). قال: لا أعلم خليقة يُكابد مِن الأمر ما يُكابِد هذا الإنسان(٢١). (١٥/٤٤٠)

٨٣٢٩٧- عن الحسن البصري -من طريق أبي مودود- (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: يُكابد أمور الدنيا، وأمور الآخرة(٢٢). (١٥/٤٤٠)

٨٣٢٩٨- عن أبي صالح [باذام] -من طريق إسماعيل- في قوله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ)، قال: معتدلًا في القامة. وفي لفظ: قائمًا(٢٣). (ز)

٨٣٢٩٩- عن عبد الحميد بن جعفر، سمعتُ محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلًا مِن الأنصار عن قول الله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ). قال: في قيامه واعتداله. فلم يُنكر عليه أبو جعفر(٢٤). (ز)

٨٣٣٠٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ) قال: وقع هاهنا القسم، (فِي كَبَدٍ) قال: في مشقّة؛ يُكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة(٢٥). (١٥/٤٣٧)

٨٣٣٠١- قال عمرو بن دينار: (فِي كَبَدٍ) نبات أسنانه(٢٦). (ز)

٨٣٣٠٢- قال خُصَيف بن عبد الرحمن: (فِي كَبَدٍ) مقاساة وانتقال أحوال، نُطفة ثم عَلقة إلى آخر تمام الخَلْق(٢٧). (ز)

٨٣٣٠٣- قال مقاتل: (فِي كَبَدٍ) في قوة(٢٨). (ز) تفسير الثعلبي ١٠/٢٠٧، وتفسير البغوي ٨/٤٣٠.

٨٣٣٠٤- قال مقاتل بن سليمان: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ) مُنتصبًا قائمًا، وذلك أنّ الله -تبارك وتعالى- خَلَق كلّ شيء على أربع قوائم غير ابن آدم يمشي على رجلين(٢٩). (ز)

٨٣٣٠٥- عن معمر بن راشد -من طريق عبد الرزاق- (فِي كَبَدٍ)، قال: شيء من خلق، لم يُخلق خَلْقه شيء(٣٠). (ز)

٨٣٣٠٦- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- (فِي كَبَدٍ)، قال: في السماء خُلِق آدم(٣١)٧١٨٠. (١٥/٤٤٠)

٧١٨٠ اختُلف في معنى: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ) على أقوال:

الأول: لقد خلقنا ابن آدم في شدة وعناء ونصب.

الثاني: خُلِقَ مُنتَصبًا مُعتَدِل القامة.

الثالث: أنه خُلِق في السماء.

ووجَّه ابنُ كثير (١٤/٣٥٤) القول الثاني بقوله: «ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سويًّا مستقيمًا كقوله: (يا أيُّها الإنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ) [الانفطار:٦-٧]، وكقوله: (لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين:٤]».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/٤١٢) -مستندًا إلى لغة العرب- القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وسعيد بن جُبَير، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب من معاني الكَبَد».

وكذا رجَّحه ابنُ عطية (٨/٦٢٠) ولم يذكر مستندًا، وانتقد القول الثاني والثالث قائلًا: «وهذان القولان قد ضُعِّفا».

*****

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)

قراءات

٨٣٣٠٧- عن رجل من بني عامر، قال: صَلّيتُ خلف النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فسمعتُه يقرأ: (أَيَحْسَبُ أن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)، (أَيَحْسَبُ أن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) [البلد:٧]، يعني: بفتح السين مِن «يحسَب»(١). (١٥/٤٤٠)

الحديث عند أبي يعلى -كما في المطالب العالية (٤١٧٩)، وإتحاف السادة المهرة (٦٦٠٧)-. وعزاه السيوطي إلى أبي يعلى، والبغوي، وابن مردويه.

قال البوصيرى: «سند ضعيف لجهالة بعض رواته».

وهي قراءة متواترة، قرأ بها ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، وقرأ بقية العشرة: ‹أَيَحْسِبُ› بكسر السين. انظر: الإتحاف ص٥٨٥.

تفسير الآية

٨٣٣٠٨- عن إسماعيل السُّدِّيّ، في قوله: (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) الآية، قال: الكافر يحسب أن لن يقدر الله عليه، ولم يره(٢). (١٥/٤٤١)

٨٣٣٠٩- قال مقاتل بن سليمان: (أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) يعني بالأحد: الله □، يعني نفسه، أيحسب هذا الإنسان أن لن يقدر الله □ على أن يذهب بماله وإنْ أحرزه(٣). (ز)

*****

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦)

تفسير

٨٣٣١٠- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية- في قوله: (مالًا لُبَدًا)، قال: كثيرًا(١). (١٥/٤٤١)

٨٣٣١١- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (يَقُولُ أهْلَكْتُ مالًا لُبَدًا)، قال: كثيرًا(٢). (١٥/٤٣٧)

٨٣٣١٢- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، في قوله: (أهْلَكْتُ مالًا لُبَدًا)، قال: أنفقتُ مالًا في الصّدِّ عن سبيل الله(٣). (١٥/٤٤١)

٨٣٣١٣- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (يَقُولُ أهْلَكْتُ مالًا لُبَدًا)، قال: كثيرًا(٤). (١٥/٤٣٧)

٨٣٣١٤- عن شرحبيل بن سعد -من طريق أبي مَعشر- في قوله: (أهلكت مالا لبدا)، قال: كثير(٥). (ز)

٨٣٣١٥- قال مقاتل بن سليمان: يعني: مالًا كثيرًا(٦). (ز)

٨٣٣١٦- عن عبد الملك ابن جُرَيْج، في قوله: (يَقُولُ أهْلَكْتُ مالًا لُبَدًا)، قال: أيمُنّ علينا؟! فما فضّلناه أفضل، (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) وكذا وكذا؟!(٧). (١٥/٤٤١)

٨٣٣١٧- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (مالًا لُبَدًا)، قال: اللبد: الكثير(٨). (ز).

*****

أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧)

تفسير

٨٣٣١٨- عن مجاهد بن جبر، (أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ)، قال: لم يقدر عليه أحد(١). (١٥/٤٣٧)

٨٣٣١٩- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، في قوله: (أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ)، قال: الأحد: الله □(٢). (١٥/٤٤١)

٨٣٣٢٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ)، قال: ابن آدم، إنك مسؤول عن هذا المال؛ من أين اكتسبتَه، وأين أنفقتَه(٣). (ز)

٨٣٣٢١- قال محمد بن السّائِب الكلبي: (أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ) إنه كان كاذبًا في قوله أنفقتُ كذا وكذا، ولم يكن أنفق جميع ما قال، يقول: أيظنّ أنّ الله □ لم يرَ ذلك منه فيعلم مقدار نفقته(٤). (ز) تفسير البغوي ٨/٤٣١

٨٣٣٢٢- قال مقاتل بن سليمان: ثم قال الله تعالى وهو يَعِده الخير: (أَيَحْسَبُ أنْ لَمْ يَرَهُ أحَدٌ)، أوَيحسب هذا الإنسان أنّ الله تعالى ليس يرى ما يُنفق وليس يُحصيه، وهو يُخلفه عليه؟!(٥). (ز)

*****

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانً□ا وَشَفَتَيْنِ (٩)

تفسير الآية

٨٣٣٢٣- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) الآية، قال: نِعَمٌ مِن الله مِتظاهرة يقرّرك بها كيما تشكر(١). (١٥/٤٤١)

آثار متعلقة بالآية

٨٣٣٢٤- عن مكحول، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: يا ابن آدم، قد أنعمتُ عليك نِعَمًا عِظامًا لا تُحصي عدّها، ولا تُطيق شُكْرها، وإنّ مما أنعمتُ عليك أن جعلتُ لك عينين تنظر بهما، وجعلتُ لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللتُ لك، فإن رأيتَ ما حرّمتُ عليك فأطبِق عليهما غطاءهما، وجعلتُ لك لسانًا، وجعلتُ له غلافًا، فانطقْ بما أمرتُك، وأحللتُ لك، فإنْ عرض لك ما حرّمتُ عليك فأغلِق عليك لسانك، وجعلتُ لك فرَجًا، وجعلتُ لك سِتْرًا، فأصِب بفرجِك ما أحللتُ لك، فإنْ عرض لك ما حرّمتُ عليك فأرخِ عليك سترك، ابن آدم، إنك لا تحمل سخطي، ولا تستطيع انتقامي»(٢). (١٥/٤٤١)

٨٣٣٢٥- عن أبي حازم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يقول: ابن آدم إن نازعك لسانك فيما حرّمتُ عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأطبِق، وإن نازعك بصرك إلى بعض ما حرّمتُ عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأطبِق، وإنْ نازعك فرجك إلى ما حرّمتُ عليك فقد أعنتُك عليه بطبقتين فأطبِق»(٣). (ز)

****

وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠)

__تفسير__

٨٣٣٢٦- عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هما نَجْدان، فما جَعل نَجْد الشر أحبّ إليكم من نَجْد الخير»(١). (١٥/٤٤٣)

أخرجه ابن عدى في الكامل ٤/٣٩٥ في ترجمة سنان بن سعد. وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

قال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ ٥/٢٥٨٣ (٦٠٠٢): «رواه سنان بن سعد عن أنس، وهو سعيد بن سنان أيضًا، وهو متروك الحديث». وقال ابن كثير في تفسيره ٨/٤٠٥: «تفرد به سنان بن سعد، ويقال: سعد بن سنان، وقد وثّقه ابن معين. وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني: منكر الحديث. وقال أحمد: تركتُ حديثه لاضطرابه، وروى خمسة عشر حديثًا منكرة كلّها، ما أعرف منها حديثًا واحدًا يشبه حديثه حديث الحسن -يعني: البصري- لا يشبه حديث أنس»

٨٣٣٢٧- عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «إنما هما النّجدان؛ نَجْد الخير، ونَجْد الشّرّ، فلا يكن نَجْد الشّرّ أحبّ إلى أحدكم من نَجْد الخير»(٢). (١٥/٤٤٤)

أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده ١/٤٠٣، والطبراني في مسند الشاميين ٣/٣١٤، من طريق كلثوم بن محمد بن أبي سدرة، نا عطاء بن أبي مسلم الخُراسانيّ، عن أبي هريرة به. وعزاه ابن حجر في الفتح ٨/٧٠٤ إلى ابن مردويه.

إسناده ضعيف جدًّا؛ فيه كلثوم بن محمد بن أبي سدرة، قال أبو حاتم: «يتكلّمون فيه». وقال ابن عديٍ: «حلبيٌّ يحدِّث عن عطاء الخُراسانيّ بمراسيل وعن غيره ممّا لا يتابع عليه عطاء بن أبي مسلم الخُراسانيّ». كما في لسان الميزان لابن حجر ٦/٤٢٣. وفيه أيضًا عطاء بن أبي مسلم الخُراسانيّ، قال عنه ابن حجر في التقريب (٤٦٠٠): «صدوق، يَهِم

كثيرًا، ويُرسل ويُدلّس». ولم يسمع عطاء من أبي هريرة، ففي جامع التحصيل للعلائي ص٢٣٨: «قال أبو موسى المديني: لم يسمع من أبي هريرة، وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين: لا أعلمه لقي أحدًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم».

٨٣٢٨- عن أبي أُمامة، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «يا أيها الناس، إنما هما نَجْدان؛ نَجْد خير، ونَجْد شرٍّ، فما جعل نَجْد الشّرّ أحبّ إليكم من نَجْد الخير»(٣). (١٥/٤٤٣)

أخرجه الطبراني في الكبير ٨/٢٦٢ (٨٠٢٠)، وفي الأوسط ٣/٧٧ (٢٥٤١)، والشهاب القضاعي في مسنده ٢/٢٣٥ (١٢٦٣).

قال الهيثمي في المجمع ١٠/٢٥٦ (١٧٨٦٧): «رواه الطبراني من حديث فضال عن أبي أمامة، وفضال ضعيف».

٨٣٢٩- عن الحسن البصري، في قوله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: ذُكر لنا: أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقول: «أيها الناس، إنما هما نَجْدان؛ نَجْد الخير، ونَجْد الشّرّ، فما جَعل نَجْد الشّرّ أحبّ إليكم من نَجْد الخير»(٤). (١٥/٤٤٣)

٨٣٣٠- عن قتادة بن دعامة، قال: ذُكر لنا: أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال. فذكر مثله(٥). (١٥/٤٤٤)

٨٣٣١- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، في قول الله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما هما نَجْدان، لا نجعل نَجْد الشّرّ أحبّ إليكم مِن نَجْد الخير»(٦). (ز)

٨٣٣٣٢- عن عبد الله بن مسعود -من طريق زِرّ- في قوله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: سبيل الخير، والشر(٧). (١٥/٤٤٢)

أخرجه آدم بن أبي إياس -كما في تفسير مجاهد ص٥٠٥-، وعبد الرزاق ٢/٣٧٤، وابن جرير ٢٤/٤١٥، ومن طريق أبي وائل، والطبراني (٩٠٩٧)، والحاكم ٢/٥٢٣. وعزاه السيوطي إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

٨٣٣٣٣- عن علي بن أبي طالب -من طريق أبي عمارة-، مثله(٨). (ز)

٨٣٣٣٤- عن علي بن أبي طالب، أنه قيل له: إنّ ناسًا يقولون: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ): الثَّدْيَيْن. قال: الخير، والشر(٩). (١٥/٤٤٣)

٨٣٣٣٥- عن عبد الله بن عباس -من طريق عيسى بن عقال، عن أبيه- في قوله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: الثَّدْيَيْن(١٠). (١٥/٤٤٤)

٨٣٣٣٦- عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: الهدى، والضّلالة(١١). (١٥/٤٤٢)

٨٣٣٣٧- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: سبيل الخير، والشر(١٢). (١٥/٤٤٣)

٨٣٣٣٨- عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: هديناه السبيلين؛ سبيل الخير، وسبيل الشر. يقول: عرَّفناه سبيل الخير، وسبيل الشر(١٣). (ز)

٨٣٣٣٩- عن الربيع بن خثيم -من طريق أبي بردة، ومنذر- قال: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) ليسا بالثَّدْيَيْن(١٤). (ز)

٨٣٣٤٠- عن سعيد بن جُبَير -من طريق عمرو بن ثابت، عن أبيه- قال: نَجْد الخير والشّرّ(١٥). (ز)

٨٣٣٤١- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) قال: عرّفناه سبيل الخير والشّرّ(١٦). (١٥/٤٤٢)

٨٣٣٤٢- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق جويبر- (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: الثَّديان(١٧). (ز)

٨٣٣٤٣- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد-(وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: نجد الخير، ونجد الشر(١٨). (١٥/٤٤٣)

٨٣٣٤٤- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق سِماك- في قوله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: الخير، والشّرّ(١٩). (١٥/٤٤٣)

٨٣٣٤٥- عن محمد بن كعب القُرَظيّ -من طريق أبي معشر- قال: الهدى، والضلالة(٢٠). (١٥/٤٤٢

٨٣٣٤٦- عن عطاء الخُراسانيّ -من طريق يونس بن يزيد- في قول الله □: (وهديناه النجدين)، قال: سبيل الخير، والشّرّ(٢١). (ز)

٨٣٣٤٧- قال مقاتل بن سليمان: ثم ذكر النِّعَم، فقال: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ولِسانًا وشَفَتَيْنِ وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، يقول: بيّنا له سبيل الخير والشّرّ(٢٢). (ز)

٨٣٣٤٨- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قول الله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ)، قال: طريق الخير والشّرّ. وقرأ قول الله: (إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ) [الإنسان:٣](٢٣)٧١٨١. (ز)

٧١٨١ اختُلف في معنى: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) في هذه الآية على أقوال: الأول: سبيل الخير والشّرّ. الثاني: هديناه الثَّدْيَيْن ليتغذّى بلبنهما.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/٦٢١) القول الأول بقوله: «أي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد». ووجَّه القول الثاني بقوله: «وهذا مثال».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/٤١٩) -مستندًا إلى النظائر- القول الأول، وهو قول ابن مسعود من طريق زِرّ، وقول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «إنّ الله -تعالى ذِكْره- إذ عدَّد على العبد نعمه بقوله: (إنّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِن نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ) [الإنسان:٢-٣] إنما عدَّد عليه هدايته إيّاه إلى سبيل الخير من نِعَمه، فكذلك قوله: (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْن)».

*****

التفسير المحرر

□

(لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠)

غريب الكلمات:

حِلٌّ: أي: حَلالٌ تَصنَعُ فيه ما تُريدُ مِنَ القَتلِ والأَسْرِ. وقيل: حالٌّ ساكِنٌ به، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ .

كَبَدٍ: أي: مَشقَّةٍ وتَعَبٍ ومُكابَدةٍ لأُمورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأصلُ (كبد): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ وقُوَّةٍ .

لُبَدًا: أي: كثيرًا مجتَمِعًا بَعضُه على بَعضٍ، مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ، أي: تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ .

النَّجْدَيْنِ: أي: الطَّريقَينِ؛ طَريقَ الخَيرِ، وطريقَ الشَّرِّ، والنَّجْدُ: الطَّريقُ في ارتِفاعٍ. وكلُّ عَالٍ مِنَ الأرضِ: نَجْدٌ، وأصلُ (نجد): يدُلُّ على اعتِلاءٍ وإشرافٍ .

<u>المعنى الإجمالي:</u>

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائلًا: أُقسِمُ بالبَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ، والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القتالِ فيه، وأُقسِمُ بوالِدٍ وبوَلَدِه؛ لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه.

ثمَّ قال تعالى: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ يَقولُ وقد بَذَّر أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا! أيظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ؟

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ نِعَمِه، فقال: ألم نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما، ولِسانًا وشفَتينِ؟ وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ!

<u>تفسير الآيات:</u>

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1).

أي: أُقسِمُ بهذا البَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ .
كما قال تعالى: وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [التين: 3] .
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/401)، ((تفسير ابن كثير)) (8/402)، ((تفسير السعدي)) (ص: 924)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/346)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 210). قال السَّمْعانيُّ: (قَولُه تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ معناه: أُقسِمُ، و«لا» صِلَةٌ. قال الفرَّاءُ: وهو على مَذهَبِ كَلامِ العَرَبِ، يَقولونَ: لا واللهِ لا أفعَلُ كذا، أي: واللهِ. وكذلك: لا واللهِ لَأَفْعَلَنَّ كذا، أي: واللهِ، فيجوزُ أن تكونَ «لا» صِلةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لقَولٍ سابقٍ، وابتِداءُ القَسَمِ مِن قَولِه: واللهِ، فكذلك قَولُه: لَا أُقْسِمُ يجوزُ أن يكونَ «لا» صِلَةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لزَعْمِهم مِن إنكارِ البَعْثِ أو إنكارِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ، والقَسَمُ مِن قَوْلِه: أُقْسِمُ، وقال الفرَّاءُ: هذا الثَّاني أَولى). ((تفسير السمعاني)) (6/225). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (3/207)، ويُنظر أيضًا ما يأتي في الفوائد (ص: 325 - 326). ممَّن اختار أنَّ معنى لَا أُقْسِمُ أي: أُقسِمُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والسمعاني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. ومِنهم مَن نَصَّ على أنَّ (لا) صِلَةٌ مُؤَكِّدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/401)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (5/327)، ((تفسير السمرقندي)) (3/582)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (5/133)، ((تفسير الماوردي)) (6/274)، ((تفسير السمعاني)) (6/225)، ((تفسير الزمخشري)) (4/753)، ((تفسير ابن

جزي)) (2/483)، ((تفسير العليمي)) (7/366)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/346)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 210). وقال ابنُ عثيمين: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ: لَا للاستِفتاحِ، أي: استفتاحِ الكلامِ وتوكيدِه، وليست نافيةً؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ القَسَمِ، يعني: أنا أُقسِمُ بهذا البلَدِ، لكِنْ «لا» هذه تأتي هنا للتَّنبيهِ والتَّأكيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 210). وقال الواحديُّ: (أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بالبلَدِ الحَرامِ، وهو مكَّةُ). ((الوسيط)) (4/488). وممَّن نَقَل اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على ذلك أيضًا: ابنُ عطيَّةَ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (5/483)، ((تفسير القرطبي)) (20/60)، ((تفسير ابن جزي)) (2/483)، ((تفسير الخازن)) (4/429)، ((تفسير الشوكاني)) (5/538). ونسَبَه مكِّيٌّ إلى قولِ أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (12/8271).

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2).

أي: أُقسِمُ بمكَّةَ والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ؛ يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها .

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عنه، قال: ((إنَّ خُزاعَةَ قَتَلوا رجلًا مِن بني لَيْثٍ عامَ فَتْحِ مَكَّةَ بقَتيلٍ منهم قَتَلوه، فأُخْبِر بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَكِب راحِلَتَه، فخَطَب، فقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ حَبَس عن مَكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رَسولَه والمُؤْمِنينَ، ألَا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، ولنْ تَحِلَّ

لأحَدٍ بَعْدي، ألَا وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن النَّهارِ، ألا وإنَّها ساعَتي هذه حَرامٌ)) .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عنهما، أنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّم مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لأحَدٍ قبلي ، ولا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدي وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ)) .

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (6/274)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 36)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (22/47). ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: وأنت -يا محمَّدُ- في المستقبَلِ حلالٌ في مكَّةَ، يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها، فيكونُ في هذا إشارةٌ إلى فتحِ مكَّةَ، وأنَّ اللهَ سيُحِلُّ لنبيِّه القِتالَ في مكَّةَ ساعةَ الفَتحِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/701)، ((معاني القرآن)) للفراء (3/263)، ((تفسير ابن جرير)) (24/402)، ((تفسير السمرقندي)) (3/582)، ((الوسيط)) للواحدي (4/488)، ((تفسير القرطبي)) (20/60)، ((تفسير ابن جزي)) (2/ 483)، ((تفسير العليمي)) (7/366). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (8/402). وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعَطاءٌ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/403)، ((البسيط)) للواحدي (24/8)، ((تفسير ابن كثير)) (8/402). قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: وأنت يا محمَّدُ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ -ونظيرُه: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [الزمر:30] - حلالٌ

بهذا البلدِ، تَصنَعُ فيه ما تَشاءُ، مِن قتْلٍ وأَسْرٍ، فيكونُ خارجًا مخرَجَ البِشارةِ له، بأنَّه سيُفتَحُ عليه، فيكونُ [فيه] حِلًّا، فظهَر أثرُ ذلك يومَ الفتحِ، وأحلَّه له ساعةً مِن النَّهارِ...). ((تفسير الرسعني)) (8/628).
وقيل: المرادُ: وأنت حالٌّ مقيمٌ بمكَّةَ. وقد استظهَر هذا المعنى: أبو حيَّانَ، وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (10/479)، ((تفسير القاسمي)) (9/475)، ((تفسير السعدي)) (ص: 924)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 211). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (8/530). قال ابن عاشور: (وهو تأويلٌ جميلٌ لو ساعَد عليه ثُبوتُ استعمالِ حِلٌّ بمعنَى: حالٌّ، أيْ: مُقيمٌ في مكانٍ، فإنَّ هذا لم يَرِدْ في كُتُبِ اللُّغةِ... ولم يُعَرِّجْ عليه صاحِبُ «الكشَّافِ»، ولا أحْسِبُ إعراضَه عنه إلَّا لِعَدَمِ ثِقَتِه بصِحَّةِ استِعْمالِه. وقال الخفاجِيُّ: «والحِلُّ: صِفَةٌ أو مَصدَرٌ بمعنَى الحالِّ هنا على هذا الوجهِ، ولا عِبْرةَ بِمَن أنْكَره لعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ». اهـ وكيف يُقالُ: لا عِبْرةَ بِعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ، وهل المَرجِعُ في إثباتِ اللُّغةِ إلَّا كُتبُ أئمَّتِها؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (30/348). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (4/754)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (8/362). وقيل: المعنى: وأنت حِلٌّ عندَ المشركينَ بهذا البَلَدِ، يَستَحِلُّونَ إخراجَك وقَتْلَك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/165)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/446). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: شُرَحْبِيلُ بنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (10/207)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (8/518).
وقيل: هو نَفْيٌ للقسَمِ، والمعنى: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ إذا لم تكُنْ فيه بعدَ خُروجِك منه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (5/538).

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3).

أي: وأُقسِمُ بوالِدٍ، وأقسِمُ بوَلَدِه .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/405، 408)، ((الوسيط)) للواحدي (4/488)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 35)، ((تفسير ابن كثير)) (8/403)، ((تفسير السعدي)) (ص: 924)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 212). قيل: المرادُ بالوالِدِ: آدَمُ عليه السَّلامُ، وبالوَلَدِ: ذُرِّيَّتُه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، ونسَبَه ابنُ القَيِّمِ إلى جمهورِ المُفَسِّرينَ، واستحسَنه وقوَّاه ابنُ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/701)، ((تفسير السمرقندي)) (3/582)، ((الوسيط)) للواحدي (4/488)، ((تفسير البغوي)) (5/254)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 35)، ((تفسير ابن كثير)) (8/403)، ((تفسير العليمي)) (7/367). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وخُصَيفٌ، وشُرَحْبِيلُ ابنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/406)، ((تفسير الماوردي)) (6/275)، ((البسيط)) للواحدي (24/11).

وقيل: إنَّ اللهَ أقسَمَ بكُلِّ والدٍ ووَلَدِه، فهي عامَّةٌ تَشملُ كُلَّ والدٍ وكُلَّ مولودٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/408)، ((تفسير أبي حيان)) (10/480)،

((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 212). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/ 406). قال ابنُ عاشور: (الَّذي يناسِبُ القَسَمَ بهذا البَلَدِ أن يكونَ المرادُ بـ «والدٍ» إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه الَّذي اتَّخَذ ذلك البلَدَ لإقامةِ وَلَدِه إسماعيلَ وزَوجِه هاجَرَ؛ قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [إبراهيم: 35]، ثمَّ قال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ [إبراهيم: 37] ، وإبراهيمُ والِدُ سُكَّانِ ذلك البلَدِ الأصليِّينَ؛ قال تعالى: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ [الحج: 78] ، ولأنَّه والِدُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وَمَا وَلَدَ موصولٌ وصِلةٌ، والضَّميرُ المستَتِرُ في وَلَدَ عائِدٌ إلى «والِدٍ»، والمقصودُ: وما ولَدَه إبراهيمُ مِنَ الأبناءِ والذُّرِّيَّةِ، وذلك مخصوصٌ بالَّذين اقتَفَوا هَدْيَه، فيَشملُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (30/349). وقيل: الوالدُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه، وما ولَدَ: أُمَّتُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (6/275).

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4).

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه، يُكابِدُ أُمورَ حياتِه ومَعيشتِه، وهمومَ دُنياه وآخِرتِه .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/408، 412)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (13/316)، ((تفسير ابن جزي)) (2/483)، ((تفسير الألوسي)) (15/351)، ((تفسير القاسمي)) (9/476). قال ابنُ جرير:

(هذا هو جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (24/408). وقال ابنُ عطيَّة: (اختَلَف النَّاسُ في «الكَبَدِ»؛ فقال جمهورُ النَّاسِ: «الإنسانُ» اسمُ الجِنسِ كُلِّه، و«الكَبَدُ» المشقَّةُ والمُكابَدةُ، أي: يُكابِدُ أمرَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (5/483). وقال السعدي: (قَولُه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: ما يُكابِدُه ويُقاسيه مِن الشَّدائدِ في الدُّنيا، وفي البَرزخِ، ويومَ يقومُ الأشهادُ، وأنَّه يَنبغي له أن يَسعى في عَمَلٍ يُريحُه مِن هذه الشَّدائِدِ، ويوجِبُ له الفَرَحَ والسُّرورَ الدَّائِمَ، وإن لم يَفعَلْ فإنَّه لا يَزالُ يُكابِدُ العَذابَ الشَّديدَ أبَدَ الآبادِ. ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ، وأقْوَمِ خِلقةٍ، يَقدِرُ على التَّصَرُّفِ والأعمالِ الشَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: 925). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (20/62، 63). ممَّن اختار القولَ المذكورَ في قولِه: كَبَدٍ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرَّسْعَني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحَلِّي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/412)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (5/328)، ((تفسير الثعلبي)) (10/207)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (12/8275)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 1203)، ((تفسير السمعاني)) (6/226)، ((تفسير ابن عطية)) (5/483، 484)، ((تفسير الرسعني)) (8/632)، ((تفسير القرطبي)) (20/62)، ((تفسير البيضاوي)) (5/313)، ((تفسير النسفي)) (3/644)، ((تفسير ابن جزي)) (2/483)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 808)، ((تفسير العليمي)) (7/367)، ((تفسير أبي السعود)) (9/161)، ((تفسير الشوكاني))

(5/539)، ((تفسير الألوسي)) (15/351). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/408)، ((تفسير الثعلبي)) (10/207)، ((البسيط)) للواحدي (24/15).

وممَّن قال: إنَّ المعنى: خلَقْناه مُعتَدِلَ الخَلقِ والقامةِ، مُنتصِبًا قائمًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/701)، ((تفسير السمرقندي)) (3/582). قال ابن كثير: (وقولُه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةَ، ومُجاهِدٍ، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وخَيْثَمةَ، والضَّحَّاكِ، وغيرِهم: يعني: مُنتَصِبًا، زاد ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه: في بَطنِ أمِّه. والكَبَدُ: الاسْتِواءُ والاستِقامةُ. ومعنى هذا القولِ: لقد خلَقْنا الإنسانَ سَوِيًّا مستقيمًا، كقولِه: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [الانفطار: 6، 7]، وكقولِه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [التين: 4]). ((تفسير ابن كثير)) (8/403).

وقال ابنُ عُثَيمين: (فِي كَبَدٍ فيها مَعنيانِ: المعنى الأوَّلُ: في استِقامةٍ، يعني: أنَّه خُلِقَ على أكمَلِ وَجهٍ في الخِلْقةِ، مُستقيمًا يَمشي على قَدَمَيه، ويرفَعُ رَأْسَه وبَدَنَه مُعتَدِلًا، والبهائِمُ بالعَكْسِ؛ الرَّأسُ على حِذاءِ الدُّبُرِ، أمَّا بنو آدَمَ فالرَّأسُ مُرتَفِعٌ أعلى البَدَنِ، فهو كما قال تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [التين: 4] .

وقيل: المرادُ بـ كَبَدٍ مُكابَدةُ الأشياءِ ومُعاناتُها، وأنَّ الإنسانَ يُعاني المشَقَّةَ في أمورِ الدُّنيا، وفي طَلَبِ الرِّزقِ، وفي إصلاحِ الحَرْثِ وغَيرِ ذلك، ويُعاني أيضًا معاناةً أشَدَّ مع نَفْسِه ومجاهَدتِها على طاعةِ اللهِ، واجتِنابِ مَعاصي اللهِ، وهذا الجِهادُ الَّذي هو أشَقُّ مِن مُعاناةِ طَلَبِ الرِّزقِ، ولا سيَّما

إذا ابتُلِيَ الإنسانُ ببيئةٍ مُنحَرِفةٍ، وصار بيْنَهم غَريبًا؛ فإنَّه سيَجِدُ المشَقَّةَ في مُعاناةِ نَفْسِه، وفي مُعاناةِ النَّاسِ أيضًا). ثمَّ ذكَرَ القاعِدةَ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيينِ فتُحمَلُ عليهما إذا لم يكُنْ بيْنَهما مُناقَضةٌ، ثمَّ قال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ يَصِحُّ أن تكونَ الآيةُ شامِلةً للمعنَيَينِ، أي: في حُسنِ قامةٍ واستِقامةٍ، وفِي كَبَدٍ في مُعاناةٍ لِمَشاقِّ الأمورِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 212، 213).

وقيل: التَّعريفُ في الإنسان تَعريفُ الجِنسِ، والمرادُ به خُصوصُ أهلِ الشِّركِ، والمرادُ بالكَبَدِ: التَّعَبُ الَّذي يُلازِمُ أصحابَ الشِّركِ مِن اعتِقادِهم تعدُّدَ الآلهةِ، واضطرابِ رأيِهم في الجَمعِ بيْن ادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لله تعالى وبيْن توَجُّهِهم إلى اللهِ بطَلَبِ الرِّزقِ وبطَلَبِ النَّجاةِ إذا أصابَهم ضُرٌّ، ومِن إحالَتِهم البَعْثَ بعْدَ المَوتِ، مع اعتِرافِهم بالخَلْقِ الأوَّلِ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (30/351).

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5).

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ فاللهُ غالِبُه وقاهِرُه، وهو قادِرٌ عليه وعلى بَعْثِه وعُقوبتِه .

كما قال الله تعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ [القيامة: 3-4] .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/412)، ((تفسير السمرقندي)) (3/583)، ((تفسير القرطبي)) (20/64)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 37)، ((تفسير الجاوي)) (2/633)، ((تفسير ابن

عاشور)) (30/351). قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني بالأحَدِ: اللهَ عزَّ وجَلَّ، يعني: نَفْسَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/702). وقال البِقاعي: (أَحَدٌ أي: مِن أهلِ الأرضِ أو السَّماءِ، فيَغلِبَه؛ حتَّى إنَّه يُعانِدُ خالِقَه مع ما يَنظُرُ مِن اقتِدارِه على أمثالِه بنَفْسِه وبمَن شاء مِن جُنودِه، فيُعادي رُسُلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ويَجحَدُ آياتِه!). ((نظم الدرر)) (22/52). قال القرطبي: (أي: أيَظُنُّ ابنُ آدَمَ أنْ لن يُعاقِبَه اللهُ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير القرطبي)) (20/64). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (3/583).

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6).

أي: يَقولُ هذا الإنسانُ المبَذِّرُ أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه ومَلَذَّاتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا .

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا [النساء: 38] .

وقال سُبحانَه وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [الأنفال: 36] .

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ [الإسراء: 27] .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/412)، ((تفسير القرطبي)) (20/64)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: 37)، ((تفسير ابن كثير)) (8/404)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 213). قال ابنُ جرير: (أهلَكْتُ مالًا كثيرًا في عَداوةِ محمَّدٍ،

فأنفَقْتُ ذلك فيه). ((تفسير ابن جرير)) (24/412، 413). وقال ابنُ عاشور: (كان أهلُ الجاهليَّةِ يتبجَّحونَ بإتلافِ المالِ ويَعُدُّونَه مَنقَبةً؛ لإيذانِه بقِلَّةِ اكتِراثِ صاحِبِه به). ((تفسير ابن عاشور)) (30/352)

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7).

أي: أيَظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ، وأنَّه لن يُحاسِبَه ويُجازيَه على ذلك ؟!

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عن ذلك الكافِرِ قَولَه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أقام الدَّلالةَ على كَمالِ قُدرتِه؛ فقال تعالى :

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8).

أي: ألَمْ نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما ؟

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/415)، ((تفسير السمرقندي)) (3/583)، ((تفسير القرطبي)) (20/64)، ((تفسير ابن كثير)) (8/404)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925). قال القرطبي: (المعنى: نحن فعَلْنا ذلك، ونحن نَقدِرُ على أنْ نبعَثَه ونُحصيَ عليه ما عَمِلَه). ((تفسير القرطبي)) (20/65)

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9).

أي: أوَلم نجعَلْ له لِسانًا وشفَتينِ يَستعينُ بهما على النُّطقِ أو غَيرِه مِنَ المنافِعِ ؟

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10).

أي: وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطَريقَ الشَّرِّ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/415، 419)، ((الوسيط)) للواحدي (4/490)، ((تفسير القرطبي)) (20/65)، ((تفسير ابن كثير)) (8/404)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925). قال ابنُ تيميَّةَ: (المعنى: ألَمْ نُعَرِّفْه طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ونُبَيِّنْه له كتَبيينِ الطَّريقَينِ العالِيَينِ؟). ((مجموع الفتاوى)) (10/580). وقال أبو حيَّانَ: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ قال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والجُمهورُ: طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، وعليٌّ، وابنُ المسَيِّبِ، والضَّحَّاكُ: الثَّديَينِ؛ لأنَّهما كالطَّريقَينِ لحياةِ الوَلَدِ ورِزْقِه). ((تفسير أبي حيان)) (10/482).

الفوائد التربوية:

1- في قَولِه تعالى: يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أنَّه سُبحانَه سَمَّى الإنفاقَ في الشَّهَواتِ والمعاصي إهلاكًا، ووَجْهُه: أنَّه لا ينتَفِعُ المُنفِقُ بما أنفَقَ، ولا يَعودُ عليه مِن إنفاقِه إلَّا النَّدَمُ والخَسارُ والتَّعَبُ والقِلَّةُ، لا كمَن أنفَقَ في مَرضاةِ اللهِ في سَبيلِ الخَيرِ؛ فإنَّ هذا قد تاجَرَ مع الله، ورَبِحَ أضعافَ أضعافِ ما أنفَقَ .

2- في قَولِه تعالى: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ أعقَبَ سُبحانَه ما به اكتِسابُ العِلمِ، وما به الإبانةُ عن المعلوماتِ بما يُرشِدُ الفِكرَ إلى النَّظَرِ والبَحثِ، وذلك قَولُه: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ، فاستكمَلَ الكلامُ أُصولَ التَّعَلُّمِ والتَّعليمِ؛ فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ مُحِبًّا للمَعرفةِ محِبًّا للتَّعريفِ، فبِمَشاعِرِ الإدراكِ يكتَسِبُ المُشاهَداتِ -وهي أصولُ المعلوماتِ اليَقينيَّةِ-، وبالنُّطقِ يُفيدُ ما يَعْلَمُه لغيرِه، وبالهَدْيِ إلى الخَيرِ والشَّرِّ يُمَيِّزُ بيْنَ مَعلوماتِه ويُمَحِّصُها .

الفوائد العلمية واللطائف:

1- في قَولِه تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ يتبادَرُ مِن ظاهِرِها أنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّه لا يُقسِمُ بهذا البلَدِ الَّذي هو مكَّةُ المكَرَّمةُ، مع أنَّه تعالى أقسَمَ به في قَولِه تعالى: وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [التين: 3] .

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ -وعليه الجُمهورُ-: أنَّ «لا» هنا صِلةٌ على عادةِ العرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، كقَولِه: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ [طه: 92-93] يعني: أن تتَّبِعَني.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ «لا» نَفيٌ لكلامِ المُشرِكينَ المكَذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَولُه: أُقْسِمُ إثباتٌ مُستأنَفٌ، وهذا القَولُ وإن قال به كثيرٌ مِن العُلَماءِ فليس بوَجيهٍ؛ لِقَولِه تبارك وتعالى في سورةِ (القيامةِ): وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [القيامة: 2] ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ يدُلُّ على أنَّه لم يُرِدِ الإثباتَ المؤتَنِفَ بعدَ النَّفيِ بقَولِه: أُقْسِمُ.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّها حَرفُ نَفيٍ أيضًا، ووَجْهُه أنَّ إنشاءَ القَسَمِ يتضَمَّنُ الإخبارَ عن تعظيمِ المقسَمِ به، فهو نفيٌ لذلك الخبَرِ الضِّمنيِّ على سبيلِ الكِنايةِ، والمرادُ أنَّه لا يَعظُمُ بالقَسَمِ، بل هو نَفْسُه عظيمٌ أُقسِمَ به أوْ لا.
الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ اللَّامَ لامُ الابتِداءِ أُشبِعَت فتحتُها، وأصلُ الكلامِ: لَأُقْسِمُ، والعرَبُ رُبَّما أشبعَتِ الفَتحةَ بألِفٍ، والكسرةَ بياءٍ، والضَّمَّةَ بواوٍ .
يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: 263-266). وذكَرَ الشنقيطيُّ أنَّ القولَ الثَّالثَ لا يخلو مِن بُعدٍ.

2- في قَولِه تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهِينا عن القَسَمِ بغيرِه.
والجوابُ عنه مِن وَجهينِ:
الأوَّلُ: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مَسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.
الثَّاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تَقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك .
3- في قَولِه تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ تَضَمَّنَ القَسَمُ أصلَ المكانِ وأصلَ السُّكَّانِ؛ فمَرجِعُ البلادِ إلى مكَّةَ، ومَرجِعُ العِبادِ إلى آدمَ . وذلك على قولٍ.

4- في قَولِه تعالى: وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ استَدَلَّ به مَن مَنَعَ قِتالَ البُغاةِ فيه . وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: 289). لا خِلافَ بيْن الفُقهاءِ في أنَّ مَن دخَل مِن البُغاةِ الحرَمَ مُقاتِلًا وبدأ القِتالَ فيه أنَّه يُقاتَلُ، لكنِ اختلَفوا في قتالِهم في الحرَمِ إذا لم يَبدَؤوا بالقتالِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (17/189).

5- في قَولِه تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ إشارةٌ إلى أنَّه ليس في الدُّنيا إلَّا الكَدُّ والمِحْنةُ .

6- قال تعالى: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ هذا الدَّليلُ العقليُّ القاطعُ فيه تنبيهٌ أنَّ الَّذي جَعَلَك تُبْصِرُ وتَتكلَّمُ وتَعلَمُ: أَولى أنْ يكونَ بَصيرًا متكَلِّمًا عالِمًا، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قَطعيٍّ أقوى مِن هذا وأبْيَنُ وأقرَبُ إلى المعقولِ ؟!

7- في قَولِه تعالى: وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ذِكْرُ الشَّفَتينِ مع اللِّسانِ؛ لأنَّ الإبانةَ تَحصُلُ بهما معًا، فلا ينطِقُ اللِّسانُ بدونِ الشَّفَتينِ، ولا تنطِقُ الشَّفتانِ بدونِ اللِّسانِ. ومِن دقائِقِ القرآنِ الكريمِ أنَّه لم يقتَصِرْ على اللِّسانِ ولا على الشَّفَتينِ، خِلافَ عادةِ كلامِ العرَبِ أن يقتَصِروا عليه؛ يقولون: «يَنطِقُ بلِسانٍ فَصيحٍ»، ويقولون: «لم ينطِقْ ببِنتِ شَفَةٍ» أو «لم يَنبِسْ ببِنتِ شَفَةٍ»؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استِدلالٍ، فجيءَ فيه بما لَه مزيدُ تصويرٍ لخَلْقِ آلةِ النُّطقِ .

بلاغة الآيات:

1- قولُه تعالَى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ

- ابتُدِئَت السُّورةُ الكريمةُ بالقسَمِ؛ تَشويقًا لِما يَرِدُ بعْدَه، وأُطِيلَت جُملةُ القسَمِ؛ زِيادةً في التَّشويقِ .

- والإشارةُ بـ (هذا) مع بَيانِه بـ الْبَلَدِ إشارةٌ إلى حاضرٍ في أذهانِ السَّامِعينَ، كأنَّهم يَرَونه؛ لأنَّ رُؤيتَه مُتكرِّرةٌ لهم، وهو بلَدُ مَكَّةَ، وفائدةُ الإتيانِ باسمِ الإشارةِ تَمييزُ المُقسَمِ به أكمَلَ تَمييزٍ؛ لقصْدِ التَّنويهِ به .

- والقسَمُ بالبَلدةِ -مع أنَّها لا تدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، ولا مِن صِفاتِ أفعالِه-؛ كِنايةٌ عن تَعظيمِ اللهِ تعالَى إيَّاها وتَفضيلِها .

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في سُورةِ (التِّينِ): وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [التين: 3] ، ولم يَصِفْه -هنا- بالأمْنِ؛ لأنَّه لا يُناسِبُ سِياقَ المشَقَّةِ، بخِلافِ ما في (التِّينِ)؛ فإنَّ المرادَ هناك الكَمالاتُ .

- وجُملة وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ مُعترِضةٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوعْدِ بفتْحِه، على مَعْنى: وأنتَ حِلٌّ بهِ في المُستقبَلِ، و(أنت) على هذا الوجْهِ مِن بابِ التَّقديمِ للاختِصاصِ، وقيل غيرُ ذلك . والمقصودُ مِن الاعتراضِ يَختلِفُ باختلافِ مَحمَلِ معْنى وَأَنْتَ حِلٌّ .

- وتَكريرُ لَفظِ بِهَذَا الْبَلَدِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ تَجديدِ التَّعجيبِ، ولقَصْدِ تَأكيدِ فتْحِ ذلك البلدِ العزيزِ عليه، والشَّديدِ على المشرِكين أنْ يَخرُجَ عن حَوزتِهم .

وقيل: إنَّه لمْ يُكرِّرْه؛ إذِ التَّقديرُ: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ المحرَّمِ الَّذي جُبِلَت العرَبُ على تَعظيمِه وتَحريمِه، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ، أي: أُحِلَّ لك فيه مِن حُرُماتِه ما لمْ يَحِلَّ لأحدٍ قبْلَك ولا بعْدَك؛ مِن قتْلِ ابنِ خَطَلٍ، وقِتالِ المشركين ساعةً مِن نَهارٍ، فالمرادُ بالبلدِ الأوَّلِ الباقي على تَحريمِه،

وبالثَّاني الَّذي أُحِلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إكرامًا له، وتَعظيمًا لمَنزلتِه
.
- قولُه: وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ نُكِّرَ الوالدُ والولَدُ للإبهامِ المُستقِلِّ بالمدْحِ والتَّعجُّبِ، وجِيءَ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِه: وَمَا وَلَدَ دونَ (مَن)، مع أنَّ (مَن) أكثَرُ استعمالًا في إرادةِ العاقلِ، وهو مُرادٌ هنا؛ فعُدِلَ عن (مَن)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ إبهامًا، فأُرِيدَ تَفخيمُ أصحابِ هذه الصِّلةِ، فجِيءَ لهم بالمَوصولِ الشَّديدِ الإبهامِ؛ لإرادةِ التَّفخيمِ، ونَظيرُه قولُه تعالَى: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ [آل عمران: 36] ، يعْني: مَولودًا عَجيبَ الشَّأنِ، ولأنَّ قُوَّةَ الإبهامِ في (ما) أنسَبُ بإرادةِ الجَماعةِ دونَ واحدٍ مُعيَّنٍ .
2- قولُه تعالَى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ الجُملةُ جَوابُ القَسَمِ، وهو الغرَضُ مِن السُّورةِ .
- قولُه: فِي كَبَدٍ، أي: تعَبٍ ومَشقَّةٍ، وهو تَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ .
3- قولُه تعالَى: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
- قولُه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ الهَمزةُ للإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّخطئةِ .
- وفي قولِه: يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أُعقِبَت مَساوي نفْسِه بمَذامِّ أقوالِه، وهو التَّفخُّرُ الكاذبُ، والتَّمدُّحُ بإتلافِ المالِ في غيرِ صَلاحٍ .
- قولُه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ الاستِفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ .
- وأيضًا قولُه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ كِنايةٌ عن عِلمِ اللهِ تعالَى بدَخيلتِه، وأنَّ افتِخارَه بالكرَمِ باطلٌ .
4- قولُه تعالَى: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

- قولُه: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ في قولِه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ [البلد: 5] ، أو قولِه: أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ [البلد: 7] ، أي: هو غافلٌ عن قُدرةِ اللهِ تعالَى، وعن عِلمِه المُحيطِ بجَميعِ الكائناتِ الدَّالِّ عليهما أنَّه خلَقَ مَشاعرَ الإدراكِ، الَّتي منها العَينانِ، وخلَقَ آلاتِ الإبانةِ، وهي اللِّسانُ والشَّفتانِ، فكيف يكونُ مُفيضُ العِلمِ على النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالِمٍ بأحوالِهم ؟!

- قولُه: أَلَمْ نَجْعَلْ الهَمزةُ للاستِفهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الاستِفهامُ تَقْريريًّا، وأنْ يكونَ إنكاريًّا .

- والاقتِصارُ على العَينينِ؛ لأنَّهما أنفَعُ المشاعِرِ، ولأنَّ المُعلَّلَ إنكارُ ظنِّه أنْ لم يَرَه أحدٌ .

- قولُه: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ النَّجْدُ: الأرضُ المرتفِعةُ ارتفاعًا دُونَ الجبَلِ، وعُبِّرَ بالنَّجْدَينِ عن الخَيرِ والشَّرِّ، وجُعِلَا نَجْدينِ؛ لصُعوبةِ اتِّباعِ أحدِهما، وهو الخيرُ، فغُلِّبَ على الطَّريقَينِ. أو لأنَّ كلَّ واحدٍ صعْبٌ باعتبارٍ؛ فطَريقُ الخَيرِ صُعوبتُه في سُلوكِه، وطَريقُ الشَّرِّ صُعوبتُه في عَواقبِه؛ ولذلك عُبِّرَ عنه بعْدَ هذا بـ الْعَقَبَةَ [البلد: 11] .

- وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ على الإنسانِ بما وُهِبَه مِن وَسائلِ العَيشِ المُستقيمِ.

*****

ثم قال تعالى:

(فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ

مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ ٢٠.

التفسير المأثور

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١)

تفسير

٨٣٣٤٩- عن عبد الله بن عباس، (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، قال: عقبة بين الجنة والنار(١). (١٥/٤٤٥)

٨٣٣٥٠- عن عبد الله بن عباس، قال: العقبة: النار(٢). (١٥/٤٤٥)

٨٣٣٥١- عن عبد الله بن عمر -من طريق عطية- في قوله: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، قال: جبل زَلّالٌ في جهنم(٣). (١٥/٤٤٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٣٢٦، وابن جرير ٢٤/٤٢٠ بلفظ: جبل في جهنم أزلّ، وابن أبي حاتم -كما في التخويف من النار ص٧٦-.

٨٣٣٥٢- عن كعب الأحبار -من طريق حنش- قال: العقبة سبعون درجة في جهنم(٤). (١٥/٤٤٥) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٢١، وابن أبي حاتم -كما في التخويف من النار ص٧٦-. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

٨٣٣٥٣- عن أبي رجاء -من طريق ضمرة- قال: بلغني: أنّ العقبة التي ذكر الله في كتابه مطلعها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة(٥). (١٥/٤٤٥) أخرجه ابن أبي حاتم -كما في التخويف من النار ص٧٦-. وعزاه السيوطي إلى ابن جرير.

٨٣٣٥٤- قال مجاهد بن جبر= (ز)

٨٣٣٥٥- والضَّحّاك بن مُزاحِم= (ز)

٨٣٣٥٦- ومحمد بن السّائِب الكلبي: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ) هي الصراط يُضرب على جهنم كحدّ السيف، مسيرة ثلاثة آلاف، سهلًا وصعودًا وهبوطًا، وأنّ لجنبَتَيه كلاليب وخطاطيف كأنها شوك السّعدان، فناجٍ مُسَلَّم، وناج مخدوش، ومُكردس في النار منكوس، فمِن الناس مَن يَمُرُّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم مَن يَمُرُّ عليه كالريح العاصف، ومنهم مَن يَمُرُّ عليه كالفارس، ومنهم مَن يَمُرُّ عليه كالرجل يسير، ومنهم مَن يزحف زحفًا، ومنهم الزالّون والزالّات، ومنهم مَن يُكردس في النار، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء(٦). (ز) تفسير الثعلبي ١٠/٢١٠، وتفسير البغوي ٨/٤٣٢

٨٣٣٥٧- عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء- قال: عقبة في جهنم(٧). (١٥/٤٤٥)

٨٣٣٥٨- عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء- (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ) قال: جهنم، (وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ) قال: ذُكر لنا: أنه ليس مِن رجل مسلم يُعتق رقبة مسلمة إلا كانت فداءَه من النار(٨). (١٥/٤٤٦)

٨٣٣٥٩- عن أبي صالح [باذام]، (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، قال: عقبة بين الجنة والنار(٩). (١٥/٤٤٥)

٨٣٣٦٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- قال: النار عقبة دون الجنة، واقتحامها (فَكُّ رَقَبَةٍ) الآية [البلد:١٣](١٠). (١٥/٤٤٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/٣٧٤، وابن جرير ٢٤/٤٢٠، ٤٢٣ بلفظ: النار عقبة دون الجسر. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

٨٣٣٦١- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- في قوله: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، قال: إنها قُحْمة شديدة، فاقتحِموها بطاعة الله(١١). (ز)

٨٣٣٦٢- عن قتادة بن دعامة: هذا مَثَل ضربه الله سبحانه، يقول: إنّ المعتق والمطعم يقاحم نفسه وشيطانه مثل مَن يتكلّف صعود العقبة(١٢). (ز)

٨٣٣٦٣- قال مقاتل بن سليمان: ثم عرّفه على الكفارة، فقال: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، وهو مَثَلٌ ضربه الله □ له، يقول: إنّ الذُّنوب بين يديك مثل الجبل، فإذا أعتقتْ رقبة اقتحم ذلك الذُّنوب حتى تذوب وتذهب، كمثل رجل بين يديه عقبة، فيقتحم، فيستوي بين يديه، وكذلك مَن أصاب ذنبًا واستغفر ربّه وكفّره بصدقة تتقحم ذنوبه حتى تُحطمها تحطيمًا مثل الجبل إذا خرّ، فيستوي مع الأرض، فذلك قوله: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)(١٣). (ز)

٨٣٣٦٤- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ)، قال: ألا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير(١٤)٧١٨٢. (١٥/٤٤٥)

٧١٨٢ ذكر ابنُ عطية (٨/٦٢٢) اختلاف المفسرين في قوله تعالى: (فَلا) على أقوال: «فقال جمهور المفسرين: هو تحضيض بمعنى: فَأَلا. وقال آخرون: هو دعاءٌ بمعنى أنه يستحق أنْ يُدعى عليه بأن لا يفعل خيرًا. وقيل: هو نفي، أي: فما اقتحم، وقاله أبو عبيدة، والزّجّاج. ثم وجَّه القول الأخير بقوله:»وهذا نحو قوله تعالى: (فَلا صَدَّقَ ولا صَلّى) [القيامة:٣١]، فهو نفيٌ محض، كأنه تعالى قال: وهبنا له الجوارح ودَلَلْناه على السبيل فما فعل خيرًا".

واختُلف في «العقبة» هل هي مثل عقبة الدنيا، أو هي عقبة حقيقية في الآخرة؟ على قولين: الأول: أنها مَثَلٌ ضربه الله لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر. الثاني: أنها عقبة حقيقة، يصعدها الناس.

وذكر ابنُ عطية (٨/٦٢٢) أن معنى «(العَقَبَةَ) في هذه الآية -على عرف كلام العرب- استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعودًا». ثم ذكر أنّ المفسرين رأَوا «أنّ (العَقَبَةَ) يراد بها: جبل في جهنم، لا ينجِّي منه إلا هذه الأعمال ونحوها. قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب».

ورجَّح ابنُ القيم (٣/٣٠٨) القول الثاني -مستندًا إلى أقوال السلف، والنظائر- قائلًا: «فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله: (وما أدْراكَ) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم».

*****

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢)

تفسير

٨٣٣٦٥- قال مقاتل بن سليمان: (وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ) تعظيمًا لها(١). (ز)

آثار متعلقة بالآية

٨٣٣٦٦- عن أبي الدّرداء، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أمامكم عقبة كؤودًا لا يجوزها المُثقِلون، فأنا أريد أن أتخفّف لتلك العقبة»(٢). (١٥/٤٤٦)

أخرجه الحاكم ٤/٦١٨ (٨٧١٣). وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وقال ابن عساكر في الأربعين البلدانية ص٦٨: «هذا حديث حسن». وقال ابن عدي في الكامل ٧/٥٣١ (١٧٦٠) في ترجمة محمد بن سليمان بن هشام بن عمرو بن بنت مطر الوراق: «يوصل الحديث ويسرقه». ثم ذكر له هذا الحديث وحديثًا آخر، وقال عقبهما: «وهذان الحديثان يُعرفان من رواية أسد بن موسى السنة عن أبي معاوية، سرقهما من أسد محمد بن سليمان هذا». وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢/٩٨: «رواه الطبراني بسند صحيح».

*****

فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)

تفسير

٨٣٣٦٧- قال عكرمة مولى ابن عباس: {فَكُّ رَقَبَةٍ}، يعني: فكّ رقبة مِن الذُّنوب بالتوبة(١). (ز) تفسير البغوي ٨/٤٣٣.

٨٣٣٦٨- عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء- {وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ}، قال: ذُكر لنا: أنه ليس مسلم يُعتق رقبة مسلمة إلا كانت فداءه من النار(٢). (١٥/٤٤٦)

٨٣٣٦٩- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد-: {وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ} ثم أخبر عن اقتحامها، فقال: {فَكُّ رَقَبَةٍ}. ذُكر لنا: أنّ النبيَّ ﷺ سُئِل عن الرِّقاب: أيها أعظم أجرًا؟ قال: «أكثرها ثمنًا»(٣). (١٥/٤٤٦) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٢٢، ومن طريق معمر أيضًا. والمرفوع منه رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر مطولًا.

٨٣٣٧٠- قال يحيى بن سلّام: {فَكُّ رَقَبَةٍ} اقتحام العقبة فكّ رقبة أو إطعام(٤). (ز)

<u>آثار متعلقة بالآية</u>

٨٣٣٧١- عن عائشة، قالت: لما نزلت: {فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ} قيل: يا رسول الله، ما عند أحدنا ما يُعتق، إلا عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه وتنوء عليه، فلو أمرناهنّ بالزِّنا فزَنَيْنَ، فجئن بالأولاد، فأعتقناهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لأن أُمتِّع بسَوْط في سبيل الله أحبّ إليّ من أن آمر بالزِّنا، ثم أُعتق الولد»(٥). (١٥/٤٤٦)

أخرجه الحاكم ٢/٢٣٤ (٢٨٥٥) مطولًا، وفي إسناده سلمة بن الفضل.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح، على شرط مسلم، ولم يخرجاه». وقال الذهبي في التلخيص: «سلمة لم يحتجّ به مسلم، وقد وُثِّق، وضعّفه ابن راهويه». وقال الألباني في الضعيفة ٩/٢٨٦ (٤٢٩٥): «ضعيف».

٨٣٣٧٢- عن عائشة أنه بلغها قول أبي هريرة: عِلاقة سَوْط - (علاقة سوط: ما في مقبضه من السير. التاج (علق) - في سبيل الله أعظم أجرًا من عِتق ولد زِنيَة. فقالت عائشة: يرحم الله أبا هريرة، إنما كان هذا أنّ الله لما أنزل: (فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ) قال بعض المسلمين: يا رسول الله، إنه ليس لنا رقبة نُعتقها، وإنما يكون لبعضنا الخويدم التي لا بدّ منها، فنأمرهنّ أن يَبْغِينَ فإذا بَغَيْنَ فولدنَ أعتقنا أولادهنّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تأمروهنّ بالبغاء، لَعلاقة سَوْط في سبيل الله أعظم أجرًا من هذا»(٧). (١٥/٤٤٧)

****

أَوۡ إِطۡعَـٰمࣱ فِی یَوۡمࣲ ذِی مَسۡغَبَةࣲ (١٤)

قراءات

٨٣٣٧٣- عن أبي رجاء العطاردي= (ز)

٨٣٣٧٤- والحسن البصري أنهما قرءا: (أوْ أطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذا مَسْغَبَةٍ)(١). (١٥/٤٤٩)

عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وأخرج بعضه الثعلبي في تفسيره ١٠/٢٠٩ من طريق جرير بن حازم. وينظر: البحر المحيط ٨/٤٧٦

وفيه: أنّ الحسن وأبا رجاء قرآ: (أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، وذكر عن علي وأبي رجاء أنهما قرآ: (أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذا مَسْغَبَةٍ)".

و‹أَوْ أَطْعَمَ› قراءة متواترة، قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وقرأ بقية العشرة: (أَوْ إِطْعامٌ) بكسر الهمزة ورفع الميم مع التنوين وألف قبلها. أما (ذا مَسْغَبَةٍ) فهي قراءة شاذة. انظر: النشر ٢/٤٠١، والإتحاف ص٥٨٥، وللقراءة الشاذة: المحتسب ٢/٣٦٢، ومختصر ابن خالويه ص١٧٤.

٨٣٣٧٥- عن الحسن البصري أنه قرأ: (أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذا مَسْغَبَةٍ)(٢). (١٥/٤٥٠)

<u>تفسير الآية</u>

٨٣٣٧٦- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: مجاعة(٣). (١٥/٤٤٩)

٨٣٣٧٧- عن أبي سعيد الخدريّ -من طريق عطية العَوفيّ- قال: إن (صَعُودًا) [المدثر:١٧] صخرة في جهنم، إذا وضعوا أيديهم عليها ذابتْ، وإذا رفعوها عادتْ، اقتحامها: (فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)(٤). (ز)

٨٣٣٧٨- عن إبراهيم النَّخْعي، (فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: يوم فيه الطعام عزيز(٥). (١٥/٤٤٩)

٨٣٣٧٩- عن مجاهد بن جبر -من طريق بن أبي نجيح- (فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: جوع(٦). (١٥/٤٤٩)

٨٣٣٨٠- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: (فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: مجاعة(٧). (ز)

٨٣٣٨١- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق جعفر بن برقان- (أَوْ إطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: ذي مجاعة(٨). (ز)

٨٣٣٨٢- عن الحسن البصري -من طريق المبارك بن فَضالة- (فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، قال: يقول: في يومٍ الطعام فيه عزيز(٩). (ز)

٨٣٣٨٣- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- قوله: (أَوْ إطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، يقول: يوم يُشتهى فيه الطعام(١٠). (ز)

٨٣٣٨٤- عن شرحبيل بن سعد -من طريق أبي معشر- في قوله: (أو إطعام في يوم ذي مسغبة)، قال: ذي مجاعة(١١). (ز)

٨٣٣٨٥- قال مقاتل بن سليمان: (أَوْ إطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ)، يعني: مجاعة(١٢). (ز)

آثار متعلقة بالآية

٨٣٣٨٦- عن جابر مرفوعًا: «مِن موجبات المغفرة إطعام المسلم السَّغْبان»(١٣). (١٥/٤٥٠)

أخرجه الحاكم ٢/٥٧٠ (٣٩٣٥).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وقال أبو نعيم في الحلية ٧/٩٠: «غريب من حديث الثوري، ما كتبته عاليًا إلا من حديث يحيى بن هاشم». وقال المناوي في فيض القدير ٦/١٧ (٨٢٦١) تعقيبًا على الحاكم والذهبي: «طلحة واهٍ، فالصحّة مِن أين؟». وقال الألباني في

الضعيفة ٧/١٩٠ بعد نقله لكلام الحاكم والذهبي: «وهو من أوهامه؛ فإنّ طلحة هذا متروك»

٨٣٣٨٧- عن مجاهد -من طريق سعيد العلاف- قال: إنّ مِن الموجبات إطعام المؤمن السَّغْبان(١٤). (ز)

*****

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)

__تفسير__

٨٣٣٨٨- عن عبد الله بن عباس، في قوله: (ذا مَقْرَبَةٍ)، قال: ذا قرابة(١). (١٥/٤٥٠)

٨٣٣٨٩- قال مقاتل بن سليمان: (يَتِيمًا ذا مَقْرَبَةٍ)، يعني: ذا قرابة(٢). (ز)

٨٣٣٩٠- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (يَتِيمًا ذا مَقْرَبَةٍ)، قال: ذا قرابة(٣). (ز)

******

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)

__تفسير__

٨٣٣٩١- عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ، {مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ}، قال: «الذي مأواه المزابل»(١). (١٥/٤٥١) أخرجه ابن مردويه -كما في تخريج أحاديث الكشاف ٤/٢١٤ (١٤٩٥)-. قال الزيلعي: «غريب».

٨٣٣٩٢- عن عبد الله بن عباس، في قوله: {ذا مَتْرَبَةٍ}: يعني: بعيد التربة، أي: غريبًا مِن وطنه(٢). (١٥/٤٥٠)

٨٣٣٩٣- عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد- في قوله: {أوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ}، قال: هو المطروح الذي ليس له بيت. وفي لفظ للحاكم: هو التَرِب الذي لا يَقيه مِن التراب شيء. وفي لفظ: هو اللازِق بالتراب مِن شِدّة الفقر(٣)٧١٨٣. (١٥/٤٥٠) أخرجه سعيد بن منصور -كما في فتح الباري ٨/٤٠٧-، وابن جرير ٢٤/٤٢٧-٤٢٩ من طريقي مجاهد وسعيد بن جُبَير، والحاكم ٢/٥٢٤. وعزاه السيوطي إلى الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

٧١٨٣ علَّق ابنُ كثير (١٤/٣٦٢) على قول ابن عباس من طريق مجاهد، ومن طريق العَوفيّ، وقول سعيد بن جُبَير، وعكرمة من طريق الأحوص، وقتادة، بقوله: «وكل هذه قريبة المعنى».

٨٣٣٩٤- عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- {أوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ}، يقول: شديد الحاجة(٤). (١٥/٤٥١)

٨٣٣٩٥- عن عبد الله بن عباس -من طريق العَوفيّ- (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، يقول: مسكين ذو بنين وعيال، ليس بينك وبينه قرابة(٥). (١٥/٤٥١)

٨٣٣٩٦- عن عبد الله بن عباس، أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبِرني عن قوله: (ذا مَتْرَبَةٍ). قال: ذا جَهْد وحاجة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ قول الشاعر:

تربت يداك ثم قلّ نوالُها .... وترفَّعتْ عنك السماء سِجالها؟(٦). (١٥/٤٥١)

٨٣٣٩٧- عن حنش بن عبد الله، أنّ أبا سعيد الخدريّ قال له: سل لي عبد الله بن عباس عن: (مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ). قال: فلقيتُ ابن عباس، فقلتُ له: ما المسكين ذا مَتربة؟ فقال: المسكين ذو المَتربَة: الرجل الذي يخرج من بيته إلى حاجة، ثم يردّ وجهه منقلبًا إلى بيته، يستيقن ليس له فيه إلا التراب(٧). (ز)

٨٣٣٩٨- عن سعيد بن جُبَير -من طريق جعفر بن أبي المُغيرة- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، قال: ذا عيال(٨). (ز)

٨٣٣٩٩- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، قال: هو المسكين الساقِط في التراب(٩). (ز)

٨٣٤٠٠- عن مجاهد بن جبر -من طريق حُصين- قال: المطروح في الأرض، الذي لا يَقِيه شيء دون التراب(١٠). (١٥/٤٥١)

٨٣٤٠١- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ): ذا عيال لاصقِين بالأرض مِن المسكَنة والجهْد(١١). (ز

٨٣٤٠٢- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق معمر- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، قال: التَرِب؛ اللازق بالأرض مِن الجهْد(١٢). (ز)
أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٢٩، كما أخرجه من طريق جعفر بن برقان بلفظ: الملتزق بالأرض من الحاجة. كذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/٣٧٥ من طريق عبد الكريم بن أبي المخارق بلفظ: قال: ليس بينه وبين التراب شيء قد لزق به، وسعيد بن منصور في سننه -التفسير ٨/٣٦٣-٣٦٤ (٢٤٧٨) من طريق خالد بن عبد الله، عن حُصَين بلفظ: هو الملاصق بالتراب.
٨٣٤٠٣- عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق الأَحْوَص، عن حُصَين- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، قال: هو المُحارِف الذي لا مال له(١٣). (ز)
٨٣٤٠٤- قال الحسن البصري: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، يعني: اللاصق بالتراب مِن الحاجة(١٤). (ز)
٨٣٤٠٥- قال الحسن البصري: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ) وقد علم الله □ أنّ قومًا يفعلون هذا الذي ذكر، لا يريدون الله به، ليسوا بمؤمنين(١٥). (ز)
٨٣٤٠٦- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (ذا مَتْرَبَةٍ) قال: كُنّا نُحدَّث أنّ التِّرِب ذو العيال الذي لا شيء له(١٦). (١٥/٤٥٢)
٨٣٤٠٧- عن عطاء الخُراسانيّ -من طريق يونس بن يزيد- في قول الله □: (مسكينا ذا متربة)، قال: يُقال: الذي قد ألصقه الفقر بالتراب(١٧). (ز)
٨٣٤٠٨- قال مقاتل بن سليمان: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، يعني: فقيرًا قد التصق ظهره بالتراب من العُري وشدة الحاجة، فيستحي أن يخرج فيسأل

الناس، وذلك كلّه لقول رسول الله ﷺ: «أعتِق رقبة، أو أطعِم ستين مسكينًا»(١٨). (ز)

٨٣٤٠٩- عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (أَوْ مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَةٍ)، قال: ذا حاجة، التَّرِب: المحتاج(١٩)٧١٨٤. (ز)

٧١٨٤ اختُلف في معنى: (ذا مَتْرَبَةٍ) في هذه الآية على أقوال: الأول: ذو اللصوق بالتراب. الثاني: هو المحتاج؛ كان لاصقًا بالتراب، أو غير لاصق به. الثالث: ذو العيال الكثير الذين قد لصقوا بالتراب من شدة الحاجة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/٤٣١) -مستندًا إلى اللغة- القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق مجاهد، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك هو الظاهر من معانيه، وأنّ قوله: (مَتْرَبَةٍ) إنما هي»مَفْعَلَة«مِن: تَرِب الرجل، إذا أصابه التراب».

آثار متعلقة بالآية

٨٣٤١٠- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق جويبر-: ما عمل الناس بعد الفريضة أحبّ إلى الله من إطعام مسكين(٢٠). (١٥/٤٥٢)

******

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨)

تفسير

٨٣٤١١- عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- (وتَواصَوْا بِالمَرْحَمَةِ): يعني بذلك: رحمة الناس كلّهم(١)٧١٨٥. (١٥/٤٥٢)

٧١٨٥ نقل ابنُ عطية (٨/٦٢٥) في معنى: (المَرْحَمَة) عن ابن عباس قوله: «كلّ ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى». ونقل عن آخرين قولهم: «هو التراحم، وعطف بعض الناس على بعض». وعلَّق عليه بقوله: «وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا».

٨٣٤١٢- عن هشام بن حسّان، في قوله: (وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ)، قال: على ما افترض الله(٢). (١٥/٤٥٢)

٨٣٤١٣- قال مقاتل بن سليمان: (ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، وجنّته، وناره، (وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ) يعني: على فرائض الله تعالى ما افترض عليهم في القرآن، فإنهم إن لم يؤمنوا بالله، ولم يعملوا الصالحات، ولم يصبروا على الفرائض؛ لم أقبل منهم كفّاراتهم وصدقاتهم. ثم ذكر الرَّحِم، فقال: (وتَواصَوْا بِالمَرْحَمَةِ) يعني بالمرحمة يعني: بالرحم فلا يقطعونها، (أُولَئِكَ) يعني: الَّذِينَ آمَنُوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة هم (أَصْحابُ المَيْمَنَةِ) الذين يؤتَوْن كتبهم بأيمانهم يوم القيامة(٣). (ز)

*****

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩)

تفسير

٨٣٤١٤- قال مقاتل بن سليمان: (والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا) يعني: بالقرآن (هُمْ أصْحابُ المَشْأَمَةِ) يعني: الذين يُعطَون كتبهم بشمائلهم، و(المَشْأَمَةِ) بلغة بني غطيف؛ حيٌّ من مراد، وكلّ ذلك يُخوّف الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف(١). (ز)

******

عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)

تفسير

٨٣٤١٥- عن أبي هريرة -من طريق أبي صالح- (عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ)، قال: يعني: نارًا مُطبَقة عليهم(١). (١٥/٤٥٢)

٨٣٤١٦- عن عبد الله بن عباس، في قوله: (مُؤْصَدَةٌ)، قال: مُغْلَقة الأبواب(٢). (١٥/٤٥٢)

٨٣٤١٧- عن عبد الله بن عباس، أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبِرني عن قوله: (مؤصدة). قال: مُطبَقة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ قول الشاعر:

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتي ومن دوننا أبواب صنعاء مؤصده(٣). (١٥/٤٥٣)

٨٣٤١٨- عن عبد الله بن عباس -من طريقي علي، وعطية- (عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ)، قال: مُطبَقة(٤). (١٥/٤٥٢)

٨٣٤١٩- عن سعيد بن جُبَير= (ز)

٨٣٤٢٠- ومجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح-= (ز

٨٣٤٢١- والضَّحّاك بن مُزاحِم -من طريق عبيد-= (ز)

٨٣٤٢٢- وعكرمة مولى ابن عباس= (ز)

٨٣٤٢٣- والحسن البصري= (ز)

٨٣٤٢٤- وعطية العَوفيّ= (ز)

٨٣٤٢٥- وقتادة بن دعامة -من طريق معمر-، مثله(٥). (١٥/٤٥٣)

٨٣٤٢٦- عن مجاهد بن جبر، (مُؤْصَدَةٌ)، قال: هي بِلُغة قريش، أصَدَ الباب: أغلقه(٦). (١٥/٤٥٣)

٨٣٤٢٧- قال مقاتل بن سليمان: (عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ)، يعني: مُطبَقة، وهي جهنم(٧). (ز)

*****

التفسير المحرر

(فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ٢٠).

غريب الكلمات:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ: أي: لم يَقتَحِمْها ولا جاوَزَها، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الأمرِ الشَّديدِ، والمُجاوَزةُ له بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، والعَقَبةُ: طَريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والعَقَبةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لِمُجاهدةِ النَّفْسِ والهوى والشَّيطانِ في أعمالِ البِرِّ، فجعَلَه كالَّذي يتكَلَّفُ صُعودَ العَقَبةِ، يقولُ: لم يَحمِلْ على نَفْسِه المشَقَّةَ بعِتقِ الرَّقبةِ ولا الإطعامِ. وقيل: هي عَقَبةُ جَهنَّمَ، أو: هي عقَبةٌ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ. وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ .

فَكُّ رَقَبَةٍ: أي: عِتقُ مَملوكٍ وتخليصُه مِن إسارِ الرِّقِّ، وكلُّ شَيءٍ أطْلَقْتَه فقَدْ فَكَكْتَه، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانْفِراجٍ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ، ومِن ذلك اشتِقاقُ الرَّقَبةِ؛ لأنَّها مُنتَصِبةٌ، ولأنَّ النَّاظِرَ لا بُدَّ يَنتَصِبُ عندَ نَظَرِه .

مَسْغَبَةٍ: أي: مَجاعةٍ، وأصلُ (سغب): يدُلُّ على جوعٍ .

مَتْرَبَةٍ:أي: فقرٍ، يُقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتَقَر، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ، فليس له شيءٌ غير التُّرابِ، وأصلُ (ترب) هنا: التُّرابُ وما يُشتَقُّ منه.

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 528)، ((تفسير ابن جرير)) (24/431)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: 430)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (1/346)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (1/250)، ((البسيط)) للواحدي (24/34)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: 453)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (5/52). قال ابن جرير: (قوله: مَتْرَبَةٍ إنَّما هي مَفْعَلةٌ مِن: تَرِبَ الرَّجُلُ، إذا أصابَه التُّرابُ). ((تفسير ابن جرير)) (24/431). وقال

الواحديُّ: (المَتْرَبةُ: مَصدَرُ قولِهم: تَرِبَ يَترَبُ تَرَبًا ومَتْرَبةً -مِثل مَسْغَبة- إذا افتقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((البسيط)) (24/34).

بِالْمَرْحَمَةِ: أي: بالرَّحمةِ والعطفِ والتَّراحُمِ فيما بيْنَهم، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأْفةِ .

الْمَيْمَنَةِ: أي: اليمينِ، أو مُشتَقَّةٌ مِن اليُمْنِ، وهو ضِدُّ الشُّؤمِ، واليُمْنُ: البَرَكةُ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/431)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (6/158)، ((البسيط)) للواحدي (21/216). قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلماءِ: قيل لهم أصحابُ اليمينِ؛ لأنَّهم يُؤْتَونَ كُتُبَهم بأَيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كذلك ليلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليمينِ وأصحابَ المَيْمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدخلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (7/513).

الْمَشْأَمَةِ: أي: الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانِبِ اليَسارِ .

مُؤْصَدَةٌ: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ .

<u>مشكل الإعراب:</u>

قَولُه تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ

قَولُه تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ استُشكِلَ عَدَمُ تَكرارِ «لا» هنا، مع أنَّها دخلَت على الماضي هنا غيرَ مُفيدةٍ للدُّعاءِ، وهم قالوا: يلزمُ تَكرارُها حينَئذٍ، كما في قَولِه تعالى: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى [القيامة: 31] .

وأُجيبَ: بأنَّ اللَّازِمَ تَكرارُها لَفظًا أو معنًى، وهي هنا مُكَرَّرةٌ معنًى؛ لأنَّ تفسيرَ العَقَبةِ بما فُسِّرَت به مِن الأُمورِ المتعَدِّدةِ يلزَمُ منه تفسيرُ الاقتحامِ، فيكونُ: فلا اقتَحَمَ العَقَبةَ في معنى: فلا فَكَّ رَقَبةً ولا أطعمَ يتيمًا، ويجوزُ أن يكونَ عدَمُ تكريرِ (لا) هنا استِغناءً بقَولِه: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا [البلد: 17] ، فكأنَّه قيل: فلا اقتحَمَ العقَبةَ ولا آمَنَ.

ونُقِلَ قولٌ بعدَمِ وُجوبِ تَكريرِها، وأنَّها كـ «لَمْ»، وإذا كانت «لَا» بمعنى «لَمْ» لم يَلزَمْ تكريرُها، كما لا يلزمُ التَّكريرُ مع «لَمْ»، فإن تكرَّرَت في موضعٍ، نحوُ: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى [القيامة: 31] ، فهو كتكريرِ «لَمْ»، نحوُ: لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا [الفرقان: 67] . والمُتيَقَّنُ أكثريَّةُ التَّكَرُّرِ، وأمَّا وُجوبُه فليس بمتيقَّنٍ.

فَكُّ خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. يَتِيمًا: مفعولٌ به للمَصدرِ إِطْعَامٌ .

المعنى الإجمالي:

قال الله تعالى محرِّضًا على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ: فلَمْ يَقطَعِ الغَنيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوَى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والإحسانِ، وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ؟

ثمَّ فسَّر الله تعالى ذلك، فقال: اقتِحامُ تلك العَقَبةِ تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ، أو إطعامٌ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ يتيمًا ذا قَرابةٍ، أو مِسكينًا لا شيءَ له، ثمَّ يكونُ ذلك المنفِقُ معَ ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا، وأوصَى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ والرَّحمةِ بالمَساكينِ واليَتامى؛ أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ، عليهم نارٌ مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا.

تفسير الآيات:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِنَ النِّعَمِ الجليلةِ؛ أتْبَعَ سُبحانَه ذلك بحَضِّه على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وعلى إصلاحِ نَفْسِه، فقال تعالى :

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11).

أي: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويتكَلَّفْ صُعودَها ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ والإحسانِ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/419)، ((الوسيط)) للواحدي (4/491)، ((تفسير أبي حيان)) (10/482)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/355، 356)، ((تفسير ابن عثيمين-

جزء عم)) (ص: 215). والعقبةُ عبارةٌ عن الأعمالِ الصَّالحةِ المذكورةِ بعدُ، وفسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بالنَّارِ، وفسَّرها ابنُ عمرَ بعقبةٍ في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (2/ 484)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (4/382).

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ أنَّه لا خَلاصَ مِنَ النَّكَدِ إلَّا بهذا الاقتحامِ؛ شرَعَ في تفسيرِ العَقَبةِ بادِئًا بتهويلِ أمْرِها؛ لعَظيمِ قَدْرِها .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12).

أي: وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ العَظيمةُ الَّتي حَثَّ اللهُ على اقتِحامِها ؟ يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/422)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/357)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 215). قيل: المخاطَبُ بقَولِه تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/422)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (5/134)، ((تفسير الماوردي)) (6/278)، ((تفسير القرطبي)) (20/67). وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في وَمَا أَدْرَاكَ لغَيرِ مُعَيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (30/357).

فَكُّ رَقَبَةٍ (13).

أي: تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/422)، ((الوسيط)) للواحدي (4/491)، ((تفسير القرطبي)) (20/68)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/358)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 216). قال السمينُ الحلبيُّ: (وفي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه فَلَا اقْتَحَمَ، تقديرُه: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العَقَبةِ؟ فالتَّقديرُ: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رَقَبَةٍ أو إطعامٌ، وإنَّما احْتِيج إلى تقديرِ هذا المُضافِ لِيَتطابَقَ المفسِّرُ والمفسَّرُ). ((الدر المصون)) (11/9). وقال السعدي: (مِن بابٍ أَولى فَكاكُ الأسيرِ المسلِمِ عندَ الكُفَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: 925).

كما قال تعالى: وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ [البقرة: 177] .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أَعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى فَرْجَه بفَرْجِه)) .

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ. فقال: لئِنْ كُنتَ أقصَرْتَ الخُطْبةَ لَقد أعرَضْتَ المسألةَ، أَعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقَبةَ. فقال: يا رَسولَ اللهِ، أوَلَيْسَتا بواحِدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفَرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعِينَ في عِتْقِها) .

أخرجه أحمدُ (18647) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (374)، والحاكمُ (2861). صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (5/174)، والألبانيُّ في ((صحيح الموارد)) (1017)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وكذا شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (30/600).
فكُّ الرقبةِ: تخليصُ الشَّخصِ مِن الرِّقِّ، وخُصَّ في هذا الحديثِ بمَن أعان في عتقِها حتَّى تعتقَ، وإذا ثبَت الفضلُ في الإعانةِ ثبَت في التفرُّدِ بالعتقِ مِن بابِ أولَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (5/ 146).

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14).

أي: أوْ تَقديمُ الطَّعامِ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ .
كما قال تعالى: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا [الإنسان: 8] .

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15).

أي: ليتيمٍ مِن أقارِبِه .

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16).

أي: أوْ لِمِسكينٍ لا شيءَ له .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/431)، ((الوسيط)) للواحدي (4/493)، ((تفسير القرطبي)) (20/70)، ((تفسير ابن كثير)) (8/408)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 217). قال الشوكاني: (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ أي: لا شَيءَ له، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ؛ لفَقْرِه، وليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ، يقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ يَترَبُ تَرَبًا ومَترَبةً: إذا افتَقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((تفسير الشوكاني)) (5/541). وقال البِقاعي: (أَوْ مِسْكِينًا أي: شَخْصًا لا كِفايةَ له ذَا مَتْرَبَةٍ أي: حاجةٍ مُقعِدةٍ له على التُّرابِ، لا يَقدِرُ على سِواه!). ((نظم الدرر)) (22/62، 63)

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17).

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا.

أي: ثمَّ إنَّ المُنفِقَ مالَه في فَكِّ الرِّقابِ، أو إطعامِ اليتيمِ القَريبِ، أو إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ: يَنبغي أن يكونَ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به؛ فتلك القُرُباتُ إنَّما تَنفَعُ مع الإيمانِ .

كما قال تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19] .

وقال سُبحانَه: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [غافر: 40] .

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا يَنفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ)) .

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ .

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بعضُهم بعضًا بالرَّحمةِ بالمساكينِ واليَتامى والضُّعَفاءِ، وسائِرِ الخَلْقِ .

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ: إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)) .

وعن جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ)) .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18).

<u>**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**</u>

لَمَّا نَوَّهَ بالَّذين آمَنوا؛ أعقَبَ التَّنويهَ بالثَّناءِ عليهم وبِشارتِهم .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18).

أي: أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/431)، ((تفسير القرطبي)) (20/71)، ((تفسير ابن كثير)) (8/409)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 218). وقال البِقاعي: (أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ أي: الجانِبِ الَّذي فيه اليُمْنُ والبَرَكةُ والنَّجاةُ مِن كُلِّ هَلَكةٍ بقِسمَيهم مِن السَّابِقِينَ المُقَرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ الأبرارِ). ((نظم الدرر)) (22/67).

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19).

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/431)، ((تفسير القرطبي)) (20/72)، ((تفسير ابن كثير)) (8/409)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925). وقال البقاعي: (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ أي: الخَصْلةِ المُكسِبةِ للشُّؤمِ والحِرْمانِ والهَلَكةِ، فهؤلاء مَشائيمُ على أنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (22/67).

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20).

أي: عليهم نارٌ مُطبَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/432)، ((الوسيط)) للواحدي (4/493)، ((تفسير القرطبي)) (20/72)، ((تفسير ابن كثير)) (8/409)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: 83)، ((تفسير السعدي)) (ص: 925). قال البِقاعي: (نَارٌ مُؤْصَدَةٌ أي: مُطبَقةُ البابِ مع إحاطَتِها بهم مِن جميعِ الجوانِبِ -بما أفهَمَتْه أداةُ الاستِعلاءِ-، ومع الضِّيقِ والوُعورةِ، وهذا لعَمْرِي أشَدُّ الضِّيقِ والكَبَدِ، والنَّصَبِ والنَّكَدِ!). ((نظم الدرر)) (22/68).

الفوائد التربوية:

1- قال تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ أفاد نفْيُ الاقتحامِ أنَّه عَدَلَ عن الاهتِداءِ إيثارًا للعاجلِ على الآجِلِ، ولو عَزَمَ وصَبَرَ لَاقتَحَمَ العَقَبةَ .

2- قال الله تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ إلى آخِرِ السِّياقِ. في تَفسيرِ العَقَبةِ بالمذكوراتِ؛ فَكُّ الرَّقبةِ، وإطعامُ اليتيمِ والمِسكينِ: توجيهٌ إلى ضَرورةِ الإنفاقِ حَقًّا، لا ما يدَّعيه الإنسانُ بدونِ حَقيقةٍ في قَولِه: يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا [البلد: 6] !

3- إطعامُ الطَّعامِ يُوجِبُ دخولَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، ويُنجِّي منها، كما قال تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمرةٍ)) .

يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: 76). والحديث أخرجه البخاريُّ (1417)، ومسلمٌ (1016) من حديثِ عَدِيٍّ بنِ حاتمٍ رضيَ الله عنه.

4- في قَولِه تعالى: أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ فَضلُ الإطعامِ، خُصوصًا عِندَ الحاجةِ إليه في زَمَنِ الجُوعِ .

5- قال تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ... جَعَلَ الأعمالَ الصَّالحةَ عَقَبةً، وعَمَلَها اقتحامًا لها؛ لِما في ذلك مِن مُعاناةِ المَشقَّةِ ومُجاهَدةِ النَّفْسِ .

6- قال تعالى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ فخَصَّ أهلَ المَيْمَنةِ بأنَّهم أهلُ الصَّبرِ والمَرحَمةِ، الَّذين قامتْ بهم هاتان الخَصْلتانِ، ووَصَّوا بهما غَيرَهم، وهذا حَصرٌ لأصحابِ المَيمنةِ فيمَن قام به هذانِ الوَصفانِ. والنَّاسُ بالنِّسبةِ إليهما أربعةُ أقسامٍ: هؤلاء خيرُ الأقسامِ. وشَرُّهم مَن لا صَبْرَ له ولا رحمةَ فيه، ويَليه مَن له صَبرٌ ولا رحمةَ عِندَه، ويليه القِسمُ الرَّابِعُ، وهو مَن له رحمةٌ ورِقَّةٌ، ولكِنْ لا صَبْرَ له .

7- في قَولِه تعالى: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ دليلٌ على أنَّ التَّواصيَ بالخَيرِ هو مِن محمودِ الأخلاقِ، ومَرْضِيِّ الأفعالِ، ومُكتَسبِ الفَوزِ بالجَنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ .

8- في قَولِه تعالى: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أنَّه يجِبُ على المرءِ أن يدُلَّ غَيرَه على طريقِ الحَقِّ، ويَمنَعَه مِن سُلوكِ طريقِ الشَّرِّ والباطِلِ ما أمكَنَه .

9- في قَولِه تعالى: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ الحَثُّ على التَّواصي بالرَّحمةِ مع الصَّبرِ ؛ فإنَّ الصَّبرَ مِلاكُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها؛ لأنَّها لا تَخْلو مِن كَبْحِ الشَّهوةِ النَّفسانيَّةِ، وذلك مِن الصَّبرِ، والمَرحمةَ مِلاكُ صَلاحِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، قال تعالى: رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [الفتح: 29] ، والتَّواصي بالرَّحمةِ فَضيلةٌ عَظيمةٌ .

10- قال تعالى: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ لا بدَّ أن يَصبِرَ وأن يَرحَمَ، وهذا هو الشَّجاعةُ والكَرَمُ؛ ولهذا يَقرِنُ اللهُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ تارةً -وهي الإحسانُ إلى الخَلْقِ، وبَيْنَهما وبيْن الصَّبرِ تارةً، ولا بُدَّ مِن الثَّلاثةِ: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصَّبرُ، لا تقومُ مَصلَحةُ المؤمِنينَ إلَّا بذلك؛ في صلاحِ نُفوسِهم، وإصلاحِ غَيرِهم، لا سيَّما كُلَّما قَوِيَت الفِتنةُ والمِحْنةُ؛ فالحاجةُ إلى ذلك تكونُ أشَدَّ، فالحاجةُ إلى السَّماحةِ والصَّبرِ عامَّةٌ لجَميعِ بني آدَمَ، لا تقومُ مَصلحةُ دِينِهم ولا دُنياهم إلَّا به؛ ولهذا جميعُهم يتمادَحونَ بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، حتَّى إنَّ ذلك عامَّةُ ما يَمدَحُ به الشُّعراءُ في شِعْرِهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخلِ والجُبنِ .

<u>الفوائد العلمية واللطائف:</u>

1- قال تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ... كلُّ موضعٍ فى القرآنِ: وَمَا أَدْرَاكَ فقد عُقِّب ببَيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: وَمَا أَدْرَاكَ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ [الشورى: 17] .
يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: 313)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (2/597). وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: وَمَا أَدْرَاكَ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: وَمَا يُدْرِيكَ فلم

يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (3/280). وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (23/207) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: وَمَا يُدْرِيكَ فلم يُخبِرْه، وما كان: وَمَا أَدْرَاكَ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (6/664). قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (29/114).

2- في قَولِه تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ تَشَوُّفُ الشَّارعِ إلى العِتْقِ وإيقاعِه ، وإشعارٌ بحقيقةِ مَوقِفِ الإسلامِ مِنَ الرِّقِّ، ومدى حِرصِه وتطَلُّعِه إلى تحريرِ الرِّقابِ؛ فها هو هنا يجعَلُ عِتقَ الرَّقبةِ سُلَّمَ اقتِحامِ العَقَبةِ، وجَعَلَه عِتقًا للمُعتِقِ مِن النَّارِ، كُلُّ عُضوٍ بعُضوٍ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مُسلِمٍ يسعى لذلك، وجعَلَه كَفَّارةً لكُلِّ يمينٍ، وللظِّهارِ بيْن الزَّوجَينِ، وكفَّارةَ القَتلِ الخطَأِ، كُلُّ ذلك نوافِذُ عِتقِ الرِّقابِ وإطلاقِها، في الوقتِ الَّذي لم يُفتَحْ للاستِرقاقِ إلَّا بابٌ واحِدٌ، هو الأَسْرُ في القِتالِ مع المُشرِكينَ لا غَيرُ، وفي ذلك رَدٌّ على المُستَشرِقينَ ومَن تأثَّرَ بهم في ادِّعائِهم على الإسلامِ أنَّه مُتعَطِّشٌ لاسترقاقِ الأحرارِ !

3- قال تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ وهو يَشملُ العِتْقَ، ويَشملُ فَكَّ الأسيرِ مِن العدُوِّ؛ فإنَّ هذا مِن فَكِّ الرِّقابِ، ففي الآيةِ دَليلٌ على فَضيلةِ العِتْقِ .

4- في قَولِه تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ أنَّ العِتقَ أفضَلُ أنواعِ الصَّدَقاتِ؛ وَجْهُه: تقَدُّمُ العِتقِ على الصَّدَقةِ .

5- في قَولِه تعالى: يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ دَلالةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ على الأقارِبِ أفضَلُ منها على الأجانِبِ .

6- في قَولِه تعالى: يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ فَضلُ إطعامِ اليتيمِ -خصوصًا القَريبَ-، وإطعامِ المِسكينِ .

7- قال تعالى: أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ المِسكينَ قد يكونُ بحيث يَملِكُ شَيئًا؛ لأنَّه لو كان لَفظُ المِسكينِ دَليلًا على أنَّه لا يملِكُ شَيئًا البتَّةَ، لَكان تقييدُه بقَولِه: ذَا مَتْرَبَةٍ تكريرًا، وهو غيرُ جائزٍ .

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/170). وقال الشنقيطي: (وممَّا استدَلَّ به القائلونَ بأنَّ المسكينَ أحْوَجُ مِن الفقيرِ: أنَّ اللهَ قال في المسكينِ: أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، قالوا: ذَا مَتْرَبَةٍ أي: لا شيءَ عِندَه، حتَّى كأنَّه قد لَصِق بالتُّرابِ مِن الفَقرِ، ليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ). ((أضواء البيان)) (5/195).

فالمُرادَ بالمِسْكينِ هاهنا الفقيرُ؛ لأنَّه لم يُطْلِقْ ذِكْرَه، ولكِنْ قَيَّدَه بصِفاتِ الفُقراءِ، بخِلافِ المِسكينِ الَّذي قد أُطْلِقَتْ صِفَتُه .

يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوردي (8/490). وقال أيضًا: (وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ [فاطر: 51] ولم يَقُل: المساكينُ؛ فدَلَّ على أنَّ الفقيرَ أمَسُّ حاجَةً وأسْوَأُ حالًا مِن المسكينِ، وقال تعالى: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ [الكهف: 79] ، فسَمَّاهم مَساكينَ ولهم سَفينةٌ، فدَلَّ على أنَّ المسكينَ أحسَنُ حالًا). ((الحاوي الكبير)) (8/489).

8- في قَولِه تعالى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا سُؤالٌ: أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ شَرطًا للانتِفاعِ بهذه الطَّاعاتِ وجَبَ كَونُه مُقَدَّمًا عليها، فما السَّبَبُ في أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَه عنها بقَولِه: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لمجرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، فكَونُه مِن الَّذين آمَنوا لا ترَتُّبَ له على ما قبْلَه إلَّا مُطلَقُ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، كما قيل:

«إنَّ مَن سادَ ثمَّ ساد أبوه.......ثمَّ قد ساد قَبْلَ ذلك جَدُّه»

فلم يُرِدْ بقَولِه: «ثمَّ ساد أبوه» التَّأخُّرَ في الوُجودِ، وإنَّما المعنى: ثمَّ اذكُرْ أنَّه ساد أبوه، كذلك في الآيةِ.

ثانيها: أنَّه يجوزُ أن يُحملَ على الظَّاهِرِ، بمعنَى: ثمَّ كان في عاقِبةِ أمْرِه مِنَ الَّذين آمَنوا، وهو أن يَموتَ مؤمِنًا، فإنَّ مَن كان موافاتُه على الإيمان نفَعَتْه القُرَبُ، ومَن لا، فلا.

فالتَّراخي رُتبيٌّ، فالإيمانُ فوقَ جميعِ ما قبْلَه؛ لأنَّه يَستقِلُّ بكَونِه سببًا للنَّجاةِ، وهو شَرْطٌ في الاعتِدادِ بالأعمالِ.

ثالثُها: أنَّ مَن أتى بهذه القُرَبِ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى قبْلَ إيمانِه بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ آمَنَ بعْدَ ذلك بمحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أُجِر على ما سلَف له مِن الخَيرِ .

9- في قَولِه تعالى: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، وفي قَولِه: وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَدارُ أمرِ الطَّاعاتِ ليس إلَّا على هذَينِ الأصلَينِ .

بلاغة الآيات:

1- قوله تعالى: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ

- قولُه: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ يجوزُ أنْ يكونَ تَفريعَ إدماجٍ بمُناسَبةِ قولِه: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [البلد: 10] ، أي: هَديناهُ الطَّريقَينِ فلم يَسلُكِ النَّجْدَ المُوصِلَ إلى الخَيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على جُملةِ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا [البلد: 6] ، وما بيْنَهما اعتراضًا، وتكونَ (لَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) استِفهامًا حُذِفَ منه أداتُه، وهو استفهامُ إنكارٍ، والمعْنى: أنَّه يَدَّعي إهلاكَ مالٍ كَثيرٍ في الفسادِ مِن مَيْسِرٍ وخَمرٍ ونحْوِ ذلك، أفلا أهْلَكَه في القُرَبِ والفضائلِ، بفَكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المساكينِ في زمَنِ المَجاعةِ؟! فإنَّ الإنفاقَ في ذلك لا يَخْفَى على النَّاسِ، خِلافًا لِما يَدَّعيه مِن إنفاقٍ .

- قولُه: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ الاقتِحامُ افتعالٌ؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّفِ مِثلَ (اكتَسَبَ)، فشُبِّهَ تَكلُّفُ الأعمالِ الصَّالحةِ باقتحامِ عَقَبةِ الجبَلِ في شِدَّتِه على النَّفْسِ ومَشقَّتِه .

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ على عدَمِ اهتداءِ هؤلاء للأعمالِ الصَّالحةِ، مع قِيامِ أسبابِ الاهتداءِ مِن الإدراكِ والنُّطقِ .

- قولُه: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ اعتِراضٌ مُقحَمٌ لبَيانِ العقَبةِ، مُقرِّرٌ لمَعْنى الإبهامِ والتَّفسيرِ؛ فإنَّ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ مُفسَّرٌ بقولِه: فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ، والمفسَّرُ مَنفيٌّ، والمفسِّرُ كذلك؛ لاتِّحادِهما في الاعتِبارِ، كأنَّه قِيل: فلا فكَّ رقَبةً، ولا أطعَمَ مِسكينًا، ولزِيادةِ تَقريرِها وكَونِها عندَ اللهِ تعالَى بمَكانةٍ رَفيعةٍ، والمعْنى: أنَّك لم تَدْرِ كُنْهَ صُعوبتِها على النَّفْسِ، وكُنْهَ ثَوابِها عندَ اللهِ تعالَى .

- قولُه: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ قيل: هو حالٌ مِن الْعَقَبَةَ في قولِه: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ؛ للتَّنويهِ بها، وأنَّها لأهمِّيَّتِها يُسأَلُ عنها المخاطَبُ هلْ أعلَمَه مُعلِمٌ ما هي؟ أي: لمْ يَقتحِمِ العقَبةَ في حالِ جَدارتِها بأنْ تُقتحَمَ، وهذا التَّنويهُ يُفيدُ التَّشويقَ إلى مَعرفةِ المُرادِ مِن العقَبةِ .

- و(ما) الأُولى والثَّانيةُ أيضًا في قولِه: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ استفهامٌ، والتَّقديرُ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَك ما هي العقَبةُ؟ أي: أعلَمَك جَوابَ هذا الاستفهامِ، كِنايةً عن كَونِه أمْرًا عَزيزًا يَحتاجُ إلى مَن يُعلِمُك به. والخِطابُ في قولِه: وَمَا أَدْرَاكَ لغيرِ مُعيَّنٌ؛ لأنَّ هذا بمَنزلةِ المَثَلِ . وذلك على قولٍ.

- قولُه: فَكُّ رَقَبَةٍ قُرِئَ برَفْعِ فَكُّ وإضافتِه إلى رَقَبَةٍ، ورفْعِ إِطْعَامٌ عطْفًا على فَكُّ، وجُملةُ فَكُّ رَقَبَةٍ بَيانٌ للعقَبةِ، والتَّقديرُ: هي فكُّ رَقَبةٍ، فحُذِفَ المُسنَدُ إليه حذْفًا لمُتابعةِ الاستِعمالِ . وقُرِئَ فَكَّ بفتْحِ الكافِ على صِيغةِ فِعلِ المُضِيِّ، وبنصْبِ رَقَبةً على المفعولِ لـ فَكَّ، أو أطعَمَ بدونِ ألِفٍ بعْدَ عَينِ (إطعام) على أنَّه فِعلُ مُضيٍّ عطْفًا على فَكَّ،

(- قرأ بهما ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ، والباقونَ برفعِ فَكُّ وخَفضِ رَقَبَةٍ وكَسرِ الهمزةِ في إِطْعَامٌ والميمِ المرفوعةِ مع التَّنوينِ وألِفٍ قبْلَها. يُنظر: *((معاني القراءات)) للأزهري (3/147)، ((النشر)) لابن الجزري (2/401).* -)

فتكون جُملةُ فَكَّ رَقَبةً بَيانًا لجُملةِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وما بيْنَهما اعتراضًا، أو تكون بدَلًا مِن جُملةِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، أي: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ، ولا فكَّ رَقَبةً أو أطعَمَ . ومَن قرَأَ فَكُّ بالرَّفعِ، فهو تَفسيرٌ لاقتحامِ العقَبةِ، والتَّقديرُ: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العقَبةِ، ومَن قرَأَ فِعلًا ماضيًا فَكَّ، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُضافٍ، بلْ يكونُ التَّعظيمُ للعَقَبةِ نفْسِها، ويَجِيءُ فَكَّ بدلًا مِن اقْتَحَمَ .

- وإيثارُ لَفظِ الرَّقَبةِ هنا؛ مع أنَ المُرادَ ذاتُ الأسيرِ أو العبْدِ؛ لأن أول ما يَخطُرُ بذِهنِ النَّاظرِ لواحدٍ مِن هؤلاء هو رَقَبتُه؛ لأنَّه في الغالِبِ يُوثَقُ مِن رَقَبتِه، وأُطلِقَ الفكُّ على تَخليصِ المأخوذِ في أسْرٍ أو مِلْكٍ؛ لمُشابَهةِ تَخليصِ الأمْرِ العَسيرِ بالنَّزعِ مِن يَدِ القابضِ المُمتنِعِ .

- قولُه: أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ إضافةُ ذِي إلى مَسْغَبَةٍ تُفيدُ اختِصاصَ ذلك اليومِ بالمَسغبةِ، أي: يومِ مَجاعةٍ، وذلك زمَنُ البرْدِ وزمَنُ القحْطِ، ووَجْهُ تَخصيصِ اليومِ ذي المَسغبةِ بالإطعامِ فيه أنَّ الناسَ في زمَنِ المَجاعةِ يَشتَدُّ شُحُّهم بالمالِ خَشيةَ امتِدادِ زمَنِ المَجاعةِ والاحتياجِ إلى الأقواتِ، فالإطعامُ في ذلك الزَّمنِ أفضَلُ، وهو العقَبةُ، ودونَ العقَبةِ مَصاعِدُ مُتفاوِتةٌ .

- واليتيمُ: الشَّخصُ الَّذي ليس له أبٌ وهو دونَ البُلوغِ، ووَجْهُ تَخصيصِه بالإطعامِ أنَّه مَظِنَّةُ قِلَّةِ الشِّبَعِ؛ لصِغَرِ سِنِّه، وضَعفِ عمَلِه، وفَقْدِ مَن يَعولُه، ولِحيائِه مِن التَّعرُّضِ لطلَبِ ما يَحتاجُه؛ فلذلك رُغِّبَ في إطعامِه وإنْ لم يَصِلْ حَدَّ المَسكنةِ والفقْرِ، ووُصِفَ بكَونِه ذا مَقرَبةٍ، أي: مَقرَبةٍ مِن المُطعِمِ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ يُؤكِّدُ إطعامَه؛ لأنَّ في كَونِه يَتيمًا إغاثةً له بالإطعامِ، وفي كَونِه ذا مَقرَبةٍ صِلةً للرَّحِمِ .

- إنْ كان المرادُ بالإنسانِ الجِنسَ المَخصوصَ -أي: المُشركين- كان نفْيُ فكِّ الرِّقابِ والإطعامِ كِنايةً عن انتفاءِ تَحلِّيهم بشَرائعِ الإسلامِ؛ لأنَّ فكَّ الرِّقابِ وإطعامَ الجِياعِ مِن القُرُباتِ الَّتي جاء بها الإسلامُ مِن إطعامِ الجِياعِ والمَحاويجِ، وفيه تَعريضٌ بتَعييرِ المشركينَ بأنَّهم إنَّما يُحِبُّون التَّفاخُرَ والسُّمعةَ وإرضاءَ أنفُسِهم بذلك، أو لمُؤانَسةِ الأخِلَّاءِ، وذلك غالبُ أحوالِهم، أي: لم يُطعِموا يَتيمًا ولا مِسكينًا في يومِ مَسغَبةٍ، أي: هو الطَّعامُ الَّذي

يَرْضاهُ اللهُ؛ لأنَّ فيه نفْعَ المُحتاجينَ مِن عِبادِه، وليس مِثْلَ إطعامِكم في المآدِبِ والولائمِ والمُنادَمةِ الَّتي لا تَعودُ بالنَّفعِ على المُطعَمينَ؛ لأنَّ تلك المَطاعمَ كانوا يَدْعون لها أمثالَهم مِن أهْلِ الجِدَةِ والغِنى دونَ حاجةٍ إلى الطَّعامِ، وإنَّما يُرِيدون المُؤانَسةَ أو المُفاخَرةَ. وإنْ كان المرادُ مِن الإنسانِ واحدًا مُعيَّنًا، جاز أنْ يكونَ المعْنى على نحْوِ ما تَقدَّمَ، وجاز أنْ يكونَ ذمًّا له باللُّؤمِ والتَّفاخُرِ الكاذبِ، وفضْحًا له بأنَّه لم يَسبِقْ منه عمَلٌ نافعٌ لقَومِه قبْلَ الإسلامِ، فلم يغرَمْ غَرامةً في فَكاكِ أَسيرٍ أو مَأخوذٍ بدَمٍ، أو مَنَّ بحُرِّيةٍ على عبْدٍ .

- في قَولِه: يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ احتِباكٌ ؛ -

(الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (3/204)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (1/347)) -

ذِكْرُ القُرْبِ أوَّلًا يدُلُّ على ضِدِّه ثانيًا، وذِكْرُ المَتْرَبةِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر في اليتيمِ القُرْبَ المُعَطِّفَ، وفي المِسكينِ الوَصْفَ المرَقِّقَ الملَطِّفَ؛ فهو لا يَقصِدُ بإطعامِه إلَّا سَدَّ فاقتِه، ودخَلَ فيه اليتيمُ البعيدُ والفقيرُ مِن بابِ الأَولى، وإن كان أجنبيًّا .

2- قولُه تعالَى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ

- قولُه: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا قيل: (ثُمَّ) لتَراخي الإيمانِ وتَباعُدِه في الرُّتبةِ، فتدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ بها أرْقى رُتبةً في الغرَضِ

المَسوقِ له الكلامُ مِن مَضمونِ الكلامِ المعطوفةِ عليه، فيَصيرُ تَقديرُ الكلامِ: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ بفكِّ رقَبةٍ أو إطعامٍ، بعْدَ كونِه مُؤمنًا؛ لأنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ المقدَّمُ على غيرِه، ولا يَثبُتُ عمَلٌ صالحٌ إلَّا به، أو يكونُ التَّراخي في الذِّكرِ، كأنَّه قيل: ثمَّ اذكُرْ أنَّه كان مِن الَّذين آمَنوا .

- وفي فِعلِ كَانَ إشعارٌ بأنَّ إيمانَه سابقٌ على اقتِحامِ العقَبةِ المطلوبةِ فيه بطَريقةِ التَّوبيخِ على انتفائِها عنه، فعطْفُ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا على الجُمَلِ المَسوقةِ للتَّوبيخِ والذَّمِّ، يُفيدُ أنَّ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ -أو هذا الإنسان المُعيَّن- لم يكُنْ مِن المؤمنينَ، وأنَّه مَلومٌ على ما فرَّطَ فيه؛ لانتفاءِ إيمانِه، وأنَّه لو فعَلَ شيئًا مِن هذه الأعمالِ الحَسَنةِ، ولم يكُنْ مِن الَّذين آمَنوا؛ ما نَفَعَه عمَلُه شيئًا؛ لأنَّه قد انتَفى عنه الحظُّ الأعظمُ مِن الصَّالحاتِ، كما دلَّت عليه (ثُمَّ) مِن التَّراخي الرُّتبيِّ، فهو مُؤذِنٌ بأنَّه شرْطٌ في الاعتدادِ بالأعمالِ .

- وقال هنا: مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا دونَ أنْ يقولَ: (ثُمَّ كان مؤمنًا)؛ لأنَّ كَونَه مِن الَّذين آمَنوا أدَلُّ على ثُبوتِ الإيمانِ مِن الوَصفِ بمؤمنٍ؛ لأنَّ صِفةَ الجَماعةِ أقوَى، مِن أجْلِ كَثرةِ الموصوفينَ بها؛ فإنَّ كثرةَ الخَيرِ خَيرٌ. ثم في هذه الآيةِ تقويةٌ أُخرَى للوصفِ، وهو جَعْلُه بالموصولِ المُشعِرِ بأنَّهم عُرِفوا بالإيمانِ بيْنَ الفِرَقِ .

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ آَمَنُوا؛ للعِلمِ به، أي: آمَنوا باللهِ وحْدَه، وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِ الإسلامِ؛ فجُعِلَ الفِعلُ كالمُستغني عن المُتعلَّقِ، وأيضًا لِيَتأتَّى مِن ذِكرِ الَّذِينَ آَمَنُوا تَخلُّصٌ إلى الثَّناءِ عليهم بقولِه: وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، ولبِشارتِهم بأنَّهم أصحابُ المَيمنةِ .

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أوصافِ المؤمنينَ تَواصِيهم بالصَّبرِ وتَواصِيهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ ذلك أشرَفُ صِفاتِهم بعْدَ الإيمانِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن اتِّصافِهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ مَن يُوصي بالمَرحمةِ هو الَّذي عَرَفَ قَدْرَها وفضْلَها، فهو يَفعَلُها قبْلَ أنْ يُوصِيَ بها. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لَيسوا مِن أهلِ الصَّبرِ ولا مِن أهْلِ المَرحمةِ .

3- قولُه تعالَى: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ افتتح باسمِ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لإحضارِهِم بصِفاتِهم في ذِهنِ السَّامعِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن إرادةِ التَّنويهِ والتَّعظيمِ .

- وفي قولِه: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ خُولِفَ في التَّعبيرِ؛ فقدْ أشارَ إلى المؤمنينَ تَكريمًا لهم، وأنَّهم حاضِرون عندَه تعالَى في مَقامِ كَرامتِه، وبمنزلةِ الجالسينَ أمامَه، لا يَعْدو الأمرُ أكثَرَ مِن الإشارةِ إليهم بالبَنانِ، ثمَّ استُعمِلَ لَفظُ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، فلمْ يُقَلْ: (هؤلاء)؛ إيذانًا ببُعدِ مَنزلتِهم عندَه، ونَيلِهم شَرَفَ الحُظوةِ والقُربِ منه، أمَّا الكافرون فقدْ ذَكَرَهم بضَميرِ الغَيبةِ إشارةً إلى أنَّهم غائبون عن مَقامِ تَجلِّياتِه وسُبحاتِ فُيوضاتِه، وأنَّهم لا يَستَأهِلون أنْ يَمُتُّوا إليه ولو بأوهَنِ الأسبابِ، وهذا مِن العَجَبِ العُجابِ، فتَدبَّرْه !

- وجُملةُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ تَتميمٌ لِما سِيقَ مِن ذَمِّ الإنسانِ المذكورِ آنِفًا؛ إذ لم يُعقَبْ ذمُّه هنالك بوَعيدِه عِنايةً بالأهمِّ، وهو ذِكرُ حالةِ أضْدادِه ووَعْدِهم، فلمَّا قُضِيَ حقُّ ذلك ثُنِيَ العِنانُ إلى ذلك

الإنسانِ، فحَصَل مِن هذا النَّظمِ البديعِ مُحسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ [1]، ومُحسِّنُ الطِّباقِ بيْن المَيْمَنةِ والمَشْأمةِ .

- (الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا [التوبة: 82] ، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ [يس: 15، 16]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا [نوح: 25]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ [البقرة: 179] ؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر:

---

[1] رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ [الأحزاب: 37] ، وقولِه تعالى: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا [نوح: 10] ، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: 430)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: 333)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: 358).

((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: 111)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (2/225)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (3/455 - 457)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: 566).

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ لتَقويةِ الحُكْمِ، وليس للقصْرِ؛ إذ قدِ استُفِيدَ القَصرُ مِن ذِكرِ الجُملةِ المُضادَّةِ الَّتي قبْلَها، وهي أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ .

- وجُملةُ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ بدَلُ اشتِمالٍ [2] مِن جُملةِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم أصحابُ المَشأمةِ .

- وعَلَيْهِمْ مُتعلِّقٌ بـ مُؤْصَدَةٌ، وقُدِّمَ على عامِلِه؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِ الغلْقِ عليهم تَعجيلًا للتَّرهيبِ. وقدِ استَتَبَّ بهذا التَّقديمِ رِعايةُ الفواصلِ بالهاءِ ابتداءً مِن قولِه: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [البلد: 11] .

---

[2] بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (2/1037)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (3/365)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (3/249).